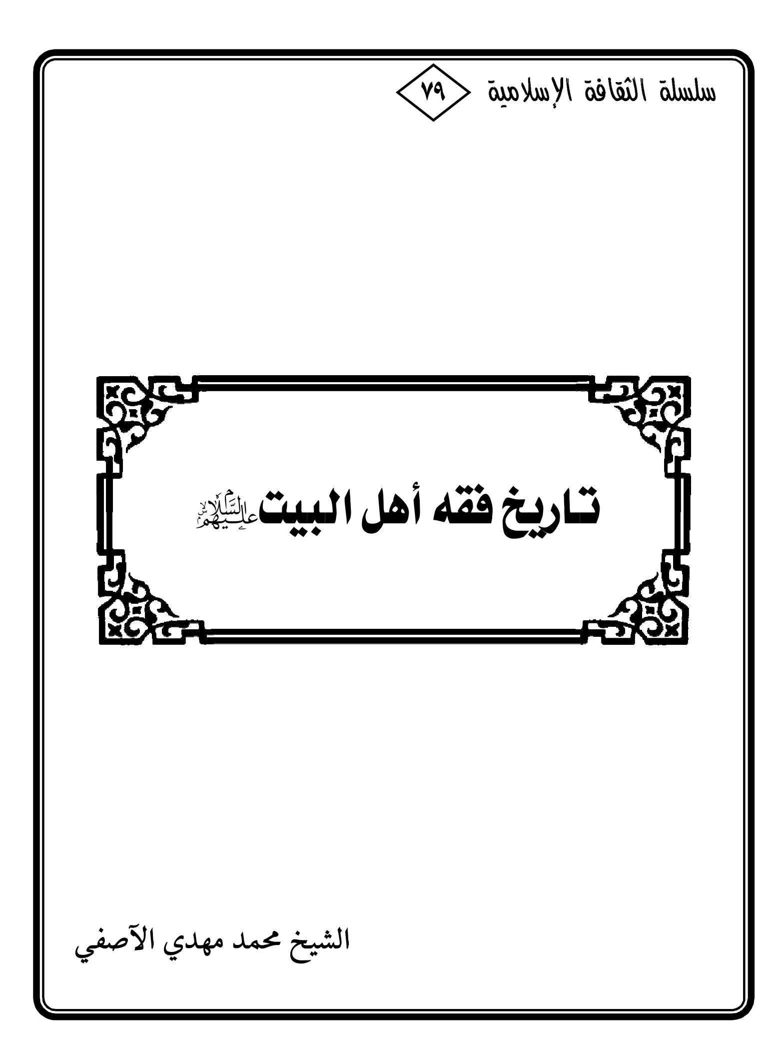


بسم الله الرحمن الرحيم

مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات
الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

❊ ❊ ❊

نشر الموضوع كمقدمة لكتاب رياض المسائل للفقيه
السيد علي الطباطبائي، ونعيد نشره تعميما للفائدة

اسم الكتاب: .... تاريخ فقه أهل البت عليهم السلام
المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي
تاريخ الطبع: .... ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م
الكمية .... ٣٠٠٠ نسخة
المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

مما يؤسف له أن (الفقه الشيعي) لم يـؤرخ مـن قبـل البـاحثين إلـى حد اليوم بصورة منهجية كاملة، ومن تحـدث عـن تـاريخ تكامـل هـذا الفقه وتطور الكتابة الفقهية لم يتجاوز ترجمة الفقهاء وتصنيف طبقات المحدثين. ولم يظهـر لحـد الآن تـصنيف لعـصور هـذا الفقـه ومراكـزه العلمية ومدارسه الفقهيـة علـى امتـداد خـط التـاريخ الإسـلامي، وبيـان ملامح هـذه المـدارس ومـا تمتـاز بـه كـل مدرسـة علـى سـابقتها، ممـا تجعلها مدارس متعاقبة ومتوالية في التكامل والنمو.

ولم يبحث أحد من الدارسين كيف تطور هـذا الفقـه مـن مـستوى المجموعـات الحديثيـة، والأصـول الأربعمائـة إلـى مـستوى (الحـدائق الناضرة) و(جواهر الكلام).

وهذه مسألة مهمة تحتاج إلى كثير من العناية والدراسة، ولا أدعـي أنني سوف أتوفر على تقديمها في هذه العجالة، ولا أنني استطيع بهـذه الدراسة أن أفتح الطريقة لغيري، غير أنني أرجو أن ينهض بهذا العـبء علمـاء وبـاحثون يولـون هـذا الأمـر مـا يـستحق مـن العنايـة والإهتمـام ويثرون المكتبة الفقهية بمثل هذه الدراسة الضرورية.

ولتطور المدرسة الفقهية عند الشيعة تاريخ طويل، كما يكون ذلـك لأية ظاهرة اجتماعية أخرى، وكما يكون ذلك لأي كائن حي.

ولدراسة تاريخ تطور الدراسة الفقهية لدى الـشيعة يجب أن تـضم حلقات هذا التطور بعضها إلى بعض، وتربط الظاهرة الفقهيـة بـالظواهر

المحيطية الأخـرى التـي تتـصل بهـا، والتـي تتفاعـل معهـا علـى امتـداد التاريخ.

فلا يمكن من وجهة منهجيـة فـصل الدراسـة الفقهيـة عـن العوامـل المحيطية والزمنية على صيد البحث التاريخي.

فلا تنمو الدراسة الفقهية كظاهرة مفـصولة عـن الحيـاة الاجتماعيـة والمحيط والعوامل المحيطية، ولا يمكن عزل الفقه عن المؤثرات التي تتدخل في تكـوين التـاريخ البـشري. وإنمـا يجـب ربـط هـذه الظـاهرة بغيرها من الظواهر والعوامـل المحيطيـة والزمنيـة، ليتـاح لنـا أن نتعـرف على عوامل النمو والرشد فيها، وتأثرها بها.

والعوامل التي يجب أن تلحظ في تطـوير المدرسـة الفقهيـة والتـي تتدخل في تكوين الدراسة الفقهية والبحث الفقهي ثلاثة:

١ـ الزمان:

ولا نعني بالزمان مـا يعنـى بـه عـادة مـن مـرور الـدقائق والـساعات، فذاك شيء لا يهمنا، وإنما نعني به العمل الناجز إلى حد زمني خـاص، فلا شك ـ أن مستوى الدراسة الفقهية الناجزة في عصر الشهيد يختلـف عنه في عصر شيخ الطائفة الطوسي، وذلك يعنـي أن شـيخ الطائفـة بـدأ العمل من مستوى دون المستوى الذي بدأه الـشهيد، وأن الـشهيد ابتـدأ العمــل الفقهــي مــن المــستوى الــذي انتهــى إليــه الــشيخ الطوســي والمحققون من بعده، وهذا العامل له أهميته فـي دراسـة تطـور البحـث الفقهي.

٢. المحيط:

لاشك في تأثر البحث الفقهي بالمراكز الثقافية التي كان ينتقل إليها، فكل واحد من المراكز الفقهية التي ينقل فيها ويحول إليها الفقه الشيعي له طابعه الثقافي الخاص، وله تأثيره في تكوين الدراسة الفقهية وتطويرها.

فحينما انتقلت الدراسة الفقهية الشيعية من المدينة إلى الكوفة وأصبحت الكوفة مركز الإشعاع في البحث الفقهي الشيعي تأثر البحث الفقهي كثيرا بهذا المحيط الجديد المزدحم بفقهاء الشيعة.

كما تأثر الفقه الشيعي بدون ريب حينما انتقل من قم إلى بغداد وكون هذا الإطار الحضاري والفكري الجديد الذي كانت تزدحم جوانبه بمختلف المدارس الثقافية والعلماء والفقهاء، من مختلف المذاهب الإسلامية.

٣. شخصية الفقهاء:

وهذا عامل ثالث في تطوير الفقه لا نستطيع أن نغضي عنه، فلمؤهلات الفقيه الفكرية وبعد نظره وعمق تفكيره وإصابة آرائه وطموحه الفكري للتجديد أثر كبير في تطوير الفقه.

فما جدده شيخ الطائفة مثلا في البحث الفقهي لا يرتبط كليا بتأثير المحيط والعصر، وإنما كان يرتبط أيضا بمؤهلات الشيخ الطوسي الشخصية وقابلياته ونبوغه الذاتي.

وعلى ضوء هذه العوامل الثلاثة سنحاول أن نقوم بدراسة سريعة

لتاريخ الفقه الشيعي، وتطور البحث الفقهي عند الشيعة، وتعاقب المدارس الفقهية، مع الإشارة إلى الملامح الكلية لكل من هذه المدارس.

وسوف نسير في هذه الدراسة التاريخية على ضوء ما قدمناه ـ بغض الطرف عن التقسيمات التي يأخذ بها مؤرخو الفقه والحديث الشيعي، على غير هذا المنهج ـ ونصنف عصور الفقه الشيعي حسب العوامل الثلاثة ضمن المدارس التالية على امتداد العصور المتعاقبة.

وحينما نضيف المدرسة الفقهية إلى قطر خاص كالكوفة أو بغداد أو المدينة لا نعني أن الفقاهة تمركزت كليا في هذه الأقطار وإنما نعني أن المدرسة بلغت نضجها الخاص وكمالها المرحلي في هذا القطر بالخصوص.

وأهم مدارس الفقه الشيعي حسب توالي عصور الفقه الشيعي هي:

١ ـ مدرسة المدينة المنورة: واستمرت إلى أواسط القرن الثاني (حياة الإمام الصادقعليه السلام).

٢ ـ مدرسة الكوفة: ظهرت من أواسط القرن الثاني (حياة الإمام الصادقعليه السلام) واستمرت إلى الربع الأول من القرن الرابع (الغيبة الكبرى).

٣ ـ مدرسة قم وري الأولى: ظهرت في الربع الأول من القرن الرابع واستمرت إلى النصف الأول من القرن الخامس (أيام المرتضى والطوسي).

٤ ـ مدرسة بغداد: ظهرت من النصف الأول للقرن الخامس إلى

احتلال بغداد.

٥ ـ مدرسة الحلة: ظهرت من احتلال بغداد واستمرت إلى حياة الشهيد الثاني.

٦ ـ مدرسة جبل عامل.

٧ ـ مدرسة اصفهان.

٨ ـ مدرسة البحرين.

٩ ـ مدرسة كربلاء المقدسة.

١٠ ـ مدرسة النجف الأشرف.

مدرسة المدينة المنورة

والعصر الأول هو عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان ظهرت من ظهور المجتمع الإسلامي في (المدينة المنورة)، واستمرت إلى حياة (الإمام الصادق عليه السلام).

والمدينة المنورة كانت هي المنطلق الأول للرسالة الإسلامية، فلاغرو إذا كانت المدرسة الأولى للفقه الإسلامي.

وكانت المدينة المنورة الوطن الأول لفقهاء الشيعة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فكان من فقهاء الصحابة بعد الإمام أميرالمؤمنين والزهراء والحسنين عليهم السلام: ابن عباس حبر الأمة وفقيهها، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وأبو رافع إبراهيم مولى رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال النجاشي: أسلم أبو رافع قديما بمكة وهاجر إلى المدينة، وشهد مع النبي صلى الله عليه وآله مشاهده، ولزم أميرالمؤمنين عليه السلام من بعده، وكان من خيار الشيعة... ولأبي رافع كتاب السنن والأحكام والقضايا[1].

ومن التابعين تولى جمع كثير من شيعة أميرالمؤمنين عليه السلام حفظ السنة النبوية وتداولوها فيما بينهم، ونقلوها إلى الأجيال التي تليهم بأمانة، حتى قال الذهبي في ميزان الاعتدال:

فهذا ـ أي التشيع ـ كثر في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق، فلو رد حديث هؤلاء ـ أي الشيعة ـ لذهبت جملة الآثار

(١) رجال النجاشي: ص ٥ تحت رقم ١، طبع مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

النبوية[1].

ولعوامل لا نعرفها منع عمر بن الخطاب تدوين السنة النبوية فبقيت السنة النبوية في صدور الصحابة والتابعين يتناقلونها حتى خلافة عمر بن عبد العزيز، حيث أمر بتدوينها محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، فلم يتفق لمحدّثي غير الشيعة من الصحابة والتابعين تدوين السنة النبوية قبل هذا الوقت.

ولكن فقهاء الشيعة ـ فيما يحدثنا التاريخ ـ دوّنوا عدة مدونات حديثية مهمة.

وكان أميرالمؤمنين عليه السلام أول من صنّف في الفقه، ودوّن الحديث النبوي، ولم يوافق عمر بن الخطاب على رأيه.

قال السيوطي: كان بين السلف من الصحابة والتابعين اختلاف كثير في كتابة العلم، فكرهها كثير منهم، وأباحتها طائفة وفعلوها: منهم: علي وابنه الحسن[2].

فكتب (الجامعة)وهي من إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام، وكان يبلغ سبعين ذراعا، وقد تواتر نقله في أحاديث الأئمة من أهل البيت عليهم السلام[3].

وكان لسلمان مدونة في الحديث كما يقول ابن شهرآشوب.

وعلي بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله كان من فقهاء الشيعة

(١) ميزان الاعتدال ١: ٥.

(٢) أعيان الشيعة ١: ٢٧٤.

(٣) راجع تفصيل ذلك في أعيان الشيعة ١: ٢٩٠.

وخواص أميرالمؤمنين عليه السلام.

قال النجاشي: وهو تابعي من خيار الشيعة، كانت له صحبة من أميرالمؤمنين، وكان كاتبا له، وحفظ كثيرا، وجمع كتابا في فنون الفقه كالوضوء والصلاة وسائر الأبواب، وكانوا يعظّمون هذا الكتاب[1].

ومنهم: سعيد بن المسيب، وهو أحد الفقهاء الستة، والقاسم بن محمد بن أبي بكر.

قال أبو أيوب: ما رأيت أفضل منه.

وفي كتاب الكافي عن يحيى بن جرير قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: كان سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد بن أبي بكر وأبو خالد الكابلي من ثقات علي بن الحسين عليه السلام[2].

ومهما يكن من أمر فقد كان فقهاء الشيعة وعلى رأسهم أئمة المسلمين من أهل البيت صلوات الله عليهم يقودون الحركة الفكرية في العالم الإسلامي، وتنطلق هذه الحركة من المدينة المنورة بشكل خاص.

وبلغ هذا الازدهار الفكري غايته في عهد الإمام الصادق عليه السلام، فقد ازدهرت المدينة المنورة في عصر الإمام، وزخرت بطلاب العلوم ووفود الأقطار الإسلامية، وانتظمت فيها حلقات الدرس، وكان بيته جامعة إسلامية يزدحم فيه رجال العالم وحملة الحديث من مختلف الطبقات ينتهلون موارد علمه.

(١) رجال النجاشي: ص ٥.

(٢) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٢٩٩.

قال ابن حجر عن الإمام الصادق عليه السلام: نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريح ومالك والسفيانيين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السختياني[1].

إذن كانت المدينة المنورة في عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام مدرسة للفقه الشيعي، ومركزا كبيرا من مراكز الإشعاع العقلي في العالم الإسلامي.

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نحصي عدد الفقهاء من الشيعة في هذه الفترة وما تركوا من آثار، ويكفي الباحث أن يرجع إلى كتب أعيان الشيعة، ورجال النجاشي، والكشي، وتأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ليعرف مدى الأثر الذي تركه فقهاء الشيعة في هذه الفترة التي تكاد تبلغ قرنا ونصف قرن من تاريخ الإسلام في الدراسة الفقهية، والمحافظة على السنة النبوية.

والشيء الذي نحب أن نشير إليه هو أن ملامح المدرسة الفقهية في هذه الفترة في المدينة المنورة كانت أولية إلى حد ما، ولم تتبلور مسائل الخلاف والمقارنة في الفقه في هذه الفترة كما تبلورت بعد في الكوفة على يد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام واستمرت إلى أيام أبي الحسن الرضا عليه السلام، فالاختلاف في القياس والاستحسان والرأي والاجتهاد، لم تظهر واضحة في هذه الفترة، وفي هذه المدرسة

(١) الصواعق المحرقة: ص ١٩٩ والصحيح (السجستاني).

بالـذات، وإن كانـت المدينـة هـي المنطلـق والمركـز الأول للبحـث الفقهي عنـد الـشيعة، وعنهـا انتقلـت المدرسـة إلـى الكوفـة، وتبلـورت المفاهيم، واتضحت نقاط الالتقاء والاخـتلاف. بـين المـذاهب الفقهيـة الإسلامية.

ومدونات الحديث كانت مقتصرة على عدد معدود من المـدونات المعروفة التي تم تدوينها في المدينة المنورة والتي ضاع أكثرها.

ولم تكن هذه المدونات فيما عدا مدونة أميرالمـؤمنين عليه السلام دورات كاملة للحديث النبوي، وإنما كانـت تجمع لقطـات مـن الـسنة النبويـة والأحكام الفقهية.

ولم تكن هناك كتب فقهية تعنى بالفتاوى خـارج نطـاق المـدونات الحديثية.

كما لم تتبلور بعـد لـدى فقهـاء الـشيعة صـياغة المقـاييس الخاصـة للاجتهاد والفتيا بصورة كاملـة، والمقـاييس الخاصـة لمعالجـة الأخبـار المتعارضة، فلم يكثر الحديث بعد عن أهل البيت عليهم السلام، ولـم يـدخل فـي حديثهم بعد الشيء الكثيـر مـن الحـديث المدسـوس، ولـم يـشق علـى الفقهاء الرجوع إلى الأئمة عليهم السلام للسؤال فيما يعرضـهم مـن حاجـة، أو مـا يعـرض النـاس فلـم تظهـر حاجـة ملحـة إلـى اتخـاذ مقـاييس للـرأي والاجتهاد، ومقاييس لمعالجـة الأحاديـث المتعارضـة، ومعرفـة الـسقيم منها عن الصحيح، ولم يراجعوا الأئمة في شيء من ذلك، ولذلك كـان البحث الفقهي في هذا الدور يقطع مراحل حياته الأولى.

وبما تقدم يمكننا أن نحدد ملامح هذا العصر فـي الخطـوط الثلاثـة

التالية:

١ ـ قلة المدونات الحديثيـة واضـطرابها فـي الجمـع والتبويـب فيمـا عدا مدونة أميرالمؤمنين عليه السلام.

٢ ـ عدم تبلور مـسائل الخـلاف المقارنـة بـين المـذاهب الإسـلامية بصورة واضحة.

٣ ـ عدم اتخاذ مقـاييس للاجتهـاد والفتيـا فيمـا لا نـص فـي مـورده وعدم الابتلاء بالأحاديث الفقهية المتعارضة.

مدرسة الكوفة

في أخريات حياة الإمام الصادق (عليه السلام) انتقلت مدرسة الفقه الشيعي من المدينة إلى الكوفة، وبذلك بدأ الفقه مرحلة جديدة من حياته في الكوفة.

وكانت الكوفة حينذاك مركزا علميا وتجاريا وسياسيا معروفا في العالم الإسلامي، يقصده طلاب العلم والمال والسياسة من أطراف العالم.

يقول البلاذري: إن أربعة آلاف من رعايا الفرس وفدوا إلى الكوفة[1].

وقد أثر وفود العناصر المختلفة إلى الكوفة طلبا للعلم أو التجارة في التلاقح العقلي والذهني في هذه المدرسة، كما كان لها الأثر البالغ في تطوير الدراسات العقلية فيها.

وقد هاجر إليها فوق ذلك وفود من الصحابة والتابعين والفقهاء وأعيان المسلمين من مختلف الأمصار، وبذلك كانت الكوفة حين انتقل إليها الإمام الصادق (عليه السلام) وانتقلت إليها مدرسة الفقه الشيعي من أكبر العواصم الإسلامية.

وقد عد البراقي في تاريخ الكوفة ١٤٨ صحابيا من الذين هاجروا إلى الكوفة واستقروا فيها، ما عدا التابعين والفقهاء الذين انتقلوا إلى هذه المدينة والذين كان يبلغ عددهم الآلاف، وما عدا الأسر العلمية

(١) راجع تاريخ الكوفة: ص ٢٨٢ ـ ٣٩٥.

التي كانت تسكن هذا القطر.

وقد أورد ابن سعد في الطبقات ترجمة لـ (٨٥٠) تابعيا ممن سكن الكوفة[1].

في مثل هذا الوقت انتقل الإمام الصادق (عليه السلام) إلى الكوفة أيام أبي العباس السفاح، واستمر بقاء الإمام الصادق (عليه السلام) في الكوفة مدة سنتين.

وقد اشتغل الإمام الصادق (عليه السلام) هذه الفترة بالخصوص في نشر مذهب أهل البيت في الاصولين والفقه لعدم وجود معارضة سياسية قوية في البين، فقد سقطت في هذه الفترة الحكومة الأموية وظهرت الحكومة العباسية، وبين هذا السقوط وهذا الظهور اغتنم الإمام الصادق (عليه السلام) الفرصة للدعوة إلى المذهب، ونشر أصول هذه المدرسة، فازدلفت إليه الشيعة من كل فج زرافات ووحدانا تستقي منه العلم وترتوي من منهله العذب وتروي عنه الأحاديث في مختلف العلوم، وكان منزله (عليه السلام) في بني عبد القيس من الكوفة[2].

قال محمد بن معروف الهلالي: مضيت إلى الحيرة إلى جعفر بن محمد (عليه السلام) فما كان لي فيه حيلة من كثرة الناس، فلما كان اليوم الرابع رآني فأدناني وتفرق الناس عنه ومضى يريد قبر أميرالمؤمنين (عليه السلام)، فتبعته وكنت أسمع كلامه وأنا معه أمشي.

وقال الحسن بن علي بن زياد الوشاء لأبي عيسى القمي: إني أدركت في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كل

(١) طبقات ابن سعد: ج ٦.

(٢) تاريخ الكوفة للبراقي: ص ٤٠٨.

يقول: حدثني جعفر بن محمد[1].

وكان من بين أصحاب الإمام الصادقعليه السلام من فقهاء الكوفة: أبان بن تغلب بن رباح الكوفي نزيل كندة، روى عنهعليه السلام (٣٠٠٠٠) حديثا.

ومنهم: محمد بن مسلم الكوفي، روى عن الباقرينعليهما السلام (٤٠٠٠٠) حديثا.

وقد صنف الحافظ أبو العباس بن عقدة الهمداني الكوفي (المتوفى سنة ٣٣٣) كتابا في أسماء الرجال الذين رووا الحديث عن الإمام الصادقعليه السلام، فذكر ترجمة (٤٠٠٠) رجلا[2].

كل ذلك بالإضافة إلى البيوتات العلمية الكوفية التي عرفت بانتسابها إلى الإمام الصادقعليه السلام، واشتهرت بالفقه والحديث كبيت آل أعين، وبيت آل حيان التغلبي، وبيت بني عطية، وبيت بني دراج، وغيرهم من البيوتات العلمية الكوفية التي عرفت بالتشيع، واشتهرت بالفقه والحديث[3].

وقد أدى كل هذا الالتقاء بشخصية الإمام الصادقعليه السلام في الكوفة، والاحتفاء به إلى أن يأخذ الجهاز العباسي الحاكم حذره منهم.

وقد خاف المنصور الدوانيقي أن يفتق به الناس ـ على حد تعبيره ـ لما رأى من إقبال الفقهاء والناس عامة عليه، واحتفائهم به، وإكرامهم له فطلبه إلى بغداد في قصة طويلة لا يهمنا نقلها.

---

(١) رجال النجاشي ترجمة (الوشا): ص ٤٠ تحت رقم ٨٠.

(٢) تاريخ الكوفة للبراقي: ص ٤٠٨.

(٣) تاريخ الكوفة: ص ٣٩٦ ـ ٤٠٧.

ومهما يكن من أمر فقد ازدهرت مدرسة الكوفة على يد الإمام الصادقعليه السلام وتلاميذه، وبتأثير من الحركة العلمية القوية التي أوجدها الإمام الصادقعليه السلام في هذا الوسط الفكري.

ولم تبق الكوفة إلى حين الغيبة الكبرى مقاما للائمةعليهم السلام، ولم يتمركز فقهاء الشيعة كلهم بعد ذلك في الكوفة، ولم تستمر هذه المدة المدرسة التي أنشأها الإمام الصادقعليه السلام في الكوفة، إلا أن الكوفة كانت هي منطلق الحركة العقلية في العصر الثاني من عصور تاريخ الفقه الشيعي ومبعث هذه الحركة ومركز الإشعاع وظلت مع ذلك تعد من أهم مراكز الفقه الشيعي، وظلت البعثات الفقهية تقصد هذه المدينة بالذات، ويتعاقب فيها فقهاء مدرسة أهل البيت مركز الصدارة في التدريس والفتيا والبحث الفقهي.

ورغم العقبات الكبرى التي اصطدم بها الأئمة من أهل البيتعليهم السلام وفقهاء الشيعة ورواة الحديث من ضغط الجهاز الحاكم حتى كان بعضهم يعرض إذا رأى الإمام في الطريق لئلا يتهم بالتشيع، وبعضهم يلتقي بالإمام ليلا خوفا من عيون الرقابة المسلطة على بيوت أئمة أهل البيتعليهم السلام.

رغم ذلك كله، ورغم المعارضات والتهم والافتراءات والتهريج الذي كان يقوم به الجهاز تقدمت الدراسة الفقهية وتدوين الحديث لمدرسة أهل البيت شوطا كبيرا في هذه الفترة، وتركت لنا هذا التراث التشريعي الضخم الذي تمتلئ به المكاتب، وتحتفل به الدورات الضخمة ـ كدورات بحار الأنوار، والجواهر، والحدائق، ووسائل

الشيعة ـ الكبيرة.

وصنف قدماء الشيعة الاثني عشرية المعاصرون للائمة في الأحاديث المروية من طرق أهل البيتعليهم السلام ما يزيد على ستة آلاف وستمائة كتاب مذكورة في كتب الرجال، على ما ضبطه الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي[١].

ومن بين هذا العدد من الكتب الذي يعتبر وحده مكتبة ضخمة في الحديث والفقه والتفسير من آفاق الفكر الإسلامي امتازت أربعمائة كتاب اشتهرت بعد ذلك بـ(الأصول الأربعمائة).

وقد بقي شيء كثير من هذه الأصول الأربعمائة، فكان شيء كثير منها محفوظا عند الشيخ الحر العاملي، وبعضها عند العلاّمة المجلسي، وبعضها عند العلاّمة النوري، وفقد مع ذلك كثير منها[٢].

ومهما يكن من أمر فقد توسعت في هذه الفترة رواية الحديث وتدوينه وازدهرت بما لا مثيل له في أي عصر آخر، وفي أي مذهب من المذاهب الإسلامية عامة.

فلهشام الكلبي أكثر من مائتي كتاب.

ولابن شاذان مائة وثمانون كتابا.

ولابن دوؤل مائة كتاب.

ولابن أبي عمير أربعة وتسعون كتابا[٣].

(١) وسائل الشيعة ٢٠: ٤٩ آخر الفائدة الرابعة.

(٢) أعيان الشيعة: ج ١ القسم الثاني ص ٣٧.

(٣) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١: ١٧.

وقد ترجم الشيخ آغا بزرك في الذريعة لمائتي رجل من مصنفي تلامذة الإمام الصادقعليه السلام عدا غيرهم من المؤلفين من أصحاب سائر الأئمةعليهم السلام، وذكر لهم من كتب الأصول ٧٣٩ كتابا[١].

فقد روى أبان بن تغلب ـ كما يقول الشيخ في الفهرست ـ ثلاثين ألف حديث عن الإمام الصادقعليه السلام.

وروى آل أعين وحدهم أضعاف هذا المقدار.

ويونس بن عبد الرحمن والبزنطي ومئات من أمثالهم كانوا من كبار المؤلفين والمكثرين في التأليف والتدوين، وقد جمع كل واحد منهم عشرات المدونات في الحديث والتفسير والفقه.

ولم تزدهر المدرسة الحديثية في مذهب من المذاهب الإسلامية كما ازدهرت عند الشيعة، حتى رأينا أن الذهبي يقول في ميزان الاعتدال: لو أردنا أن نسقط رجال الشيعة من أسناد الروايات لم تسلم لنا من السنة إلا القليل النادر.

ولا نطيل في تفصيل شرح هذه الحركة الفكرية التي انطلقت من بيت النبوة، ورعاها فقهاء الشيعة ومحدثوها بعناية فائقة واهتمام كبير.

ملامح المدرسة:

وجدنا فيما تقدم من حديث عن العصر الأول من عصور الفقه الشيعي أن تدوين الحديث لم يكن أمرا شائعا بين المحدثين الشيعة، فلم تصلنا من ابن عباس مثلا رغم كثرة رواياته مدونة في الحديث إلا

(١) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٦: ٣٠١ ـ ٣٧٤.

ما جمعه الفيروزآبادي من رواياته في التفسير والتأويل.

وظاهرة التدوين ظهرت من أيام الإمام الباقر عليه السلام ونمت أيام الإمام الصادق عليه السلام، فقد كان الإمام الصادق عليه السلام ـ لما رأى من ضياع الأحاديث والسنن ـ بحثّ الرواة والعلماء على تدوين السنة وكتابتها.

قال عاصم: سمعت أبا بصير يقول: قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «اكتبوا، فإنكم لا تحفظون إلا بالكتابة»[1].

وعن أبي بصير قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فقال: «ما يمنعكم من الكتاب؟! إنكم لن تحفظوا حتى تكتبوا، إنه خرج من عندي رهط من أهل البصرة يسألون عن أشياء فكتبوها».

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «اكتبوا، فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا».

وكذلك نجد أن الإمام الصادق عليه السلام كان يدفع أصحابه وتلامذته إلى التدوين وكتابة الحديث خوفا عليه من الضياع والاضطراب.

وهذه ظاهرة أولى على ملامح هذا العصر.

والظاهرة الثانية ماجد في حياة المسلمين من شؤون وأحداث وحاجات مما لم يكن لهم به عهد من قبل، ومما لم يجدوا له نصا في الكتاب والسنة. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أوكل أمر بيان وتبليغ أحكام الله تعالى في هذه المسائل إلى أهل بيته من بعده في حديث (الثقلين) المعروف. ولما كانت السلطة تحظر الرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام من

(١) وسائل الشيعة ١٨: ٢٣٦ باب ٨ حديث ٦.

أمثال هذه المسائل كان الفقهاء يضطرون إلى اتخاذ القياس والاستحسان، والأخذ بالظن والرأي أداة لتبيين الحكم الشرعي.

يقول الدكتور محمد يوسف موسى: بعد أن لحق رسول الله صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى، وحدث من الوقائع والأحداث ما لم تشتمل نصوص القرآن والسنة على أحكامه كان لابد من الوصول إلى هذه الأحكام بطريق آخر، فكان من ذلك هذان الأصلان: (الإجماع، والقياس)[1].

وقد وقف الإمام الصادق عليه السلام حين رأى شيوع الأخذ بالقياس والرأي موقف المعارض منهما، ودعا أصحابه إلى عدم الأخذ بهما، وعارض المذاهب الفقهية التي كانت تأخذ بالقياس أشد المعارضة.

قال أبان بن تغلب: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ما تقول في رجل قطع إصبعا من أصابع المرأة كم فيها؟ قال: عشرة من الإبل.

قلت: قطع اثنين؟ قال: عشرون.

قلت: قطع ثلاثا؟ قال: ثلاثون.

قلت: قطع أربعا؟ قال: عشرون.

قلت: سبحان الله يقطع ثلاثا فيكن عليه ثلاثون، فيقطع أربعا فيكون عليه عشرون!! إن هذا كان يبلغنا ونحن بالعراق فنبرأ ممن قاله، ونقول: الذي قاله شيطان.

فقال عليه السلام: مهلا يا أبان هكذا حكم رسول الله صلى الله عليه وآله إن المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية فإذا بلغت الثلث رجعت المرأة إلى النصف، يا

(١) محاضرات في تاريخ الفقه الإسلامي: ص ١٧.

أبان إنك أخذتني بالقياس، والسنة إذا قيست محق الدين»[١].

والظاهرة الثالثة، في هذه المدرسة هو حدوث الاختلاف بين الرواة في الرواية. فقد شاع نقل الحديث عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) في هذه الفترة، وكثر الدس وظهر الاختلاف في متون الروايات، فكان يبلغ البعض منهم حديثان مختلفان في مسألة واحدة، فكان الرواة يطلبون من أئمة أهل البيت(عليهم السلام) أن يبينوا لهم مقياسا لاختيار وتمييز الحديث الصحيح من بين الأحاديث المتضاربة التي تردهم في مسألة واحدة.

وقد ورد عنهم(عليهم السلام) أحاديث في معالجة الأخبار المتعارضة تسمى (الأخبار العلاجية) في الأصول.

قال زرارة: «سألت أبا جعفر(عليه السلام) فقلت: جعلت فداك يأتي عنكم الخبران والحديثان المتعارضان فبأيهما آخذ؟

فقال(عليه السلام): يا زرارة خذ بما اشتهر بين أصحابك، ودع الشاذ النادر.

فقلت: يا سيدي إنهما معا مشهوران مأثوران عنكم.

فقال: خذ بما يتول أعدلهما عندك وأوثقهما في نفسك.

فقلت: إنهما معا عدلان مرضيان موثقان.

فقال: أنظر ما وافق منهما العامة[٢] فاتركه، وخذ بما خالف، فان

(١) من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٨ باب ١٧ حديث ١.

(٢) فقهاء العامة هم الفقهاء الرسميون الذي كانت السلطة تنيط بهم أمر الفتيا والقضاء في ظروف وشروط وتحت ضغوط معروفة. وقد كان جل الفقهاء يحاولون التخلص من هذا التكليف العسير.

الحق فيما خالفهم.

قلت: ربما كانا موافقين لهم أو مخالفين فكيف أصنع؟

قال: إذا فخذ بما فيه الحائطة لدينك واترك الآخر.

قلت: فإنهما معا موافقان للاحتياط أو مخالفان له فكيف أصنع؟

فقال: إذاً فتخير أحدهما وتأخذ به ودع الآخر»[١].

والأخبار العلاجية كثيرة لا نريد أن نحصيها هنا، ويكفينا أن نقول: إن ظهرت الأخبار العلاجية في هذه الفترة تكشف عن شيوع الرواية والحديث عن أهل البيت(عليهم السلام) في الفقه وانتشار فقه أهل البيت في الأقطار والأمصار، فقد انتشر فقه أهل البيت في كثير من أقطار العراق وخراسان والري. والحجاز واليمن بشكل ملحوظ مما أدى إلى كثرة النقل والحديث عنهم، وتداول فقههم(عليهم السلام).

وهذه هي الظروف الطبيعية لظهور الدس والاختلاق والتزييف في الحديث.

وهذه ظاهرة أخرى من ملامح هذا العصر.

وفي هذه الفترة اتسعت شقة الخلاف بين المذاهب الفقهية الإسلامية في كثير من المسائل الخلافية.

وكان موقف أئمة أهل البيت(عليهم السلام) مما يثار من الخلافات في هذه الفتنة موقفا حكيما فقد كانوا يجارون الفقه الرسمي الذي تتبناه السلطة ما تسعهم المجاراة، لئلا يزيد الشرخ في هذه الأمة، فإذا خلوا

(١) عوالي اللئالي ٤: ١٣٣ ح ٢٢٩.

إلى أصحابهم بينوا لهم وجه الحق فيما يختلف فيه الناس وأمروهم بالكتمان والسر ما وسعهم ذلك وحتى يقضي الله ما هو قاض. وهذا هو ما يعرف عند الإمامية بـ(التقية). ولم تكن الغاية منها المحافظة على النفوس والدماء من إرهاب السلطة، وإنما كانت الغاية منها كثيرا هي المحافظة على وحدة كيان الأمة من التصدع والتفرق قدر الإمكان.

على أن أهل البيت عليهم السلام لم يفرطوا في بيان أحكام الله وحدوده بسبب التقية.

وقد أساء كثير من الناس فهم التقية وتحاملوا على الشيعة بسببها، ولو عرفوا منطلقات التقية وحدودها من مصادرها الصحيحة لم يجدوا بدا منها في هذه الفترة الدقيقة والصعبة من تاريخ الإسلام.

وظاهرة رابعة في هذا الدور من ملامح المدرسة: تعيين موازين ومقاييس خاصة للاجتهاد والاستنباط من قبل أئمة أهل البيت عليهم السلام.

فقد كان الرواة ينتقلون إلى مناطق بعيدة، وتمس بهم الحاجة إلى معرفة أحكام الله، ولا يجدون وسيلة للسؤال عن الإمام عليه السلام، ولا يجدون نصا في المورد، فوضع لهم أئمة أهل البيت عليهم السلام أصولا وقواعد خاصة للاستنباط والاجتهاد يستعرضها الفقهاء بتفصيل كالاستصحاب والبراءة والاحتياط والتخيير، وجملة من القواعد الفقهية كقاعدة الطهارة واليد والإباحة والحلية، وما شاكل ذلك مما يعين الفقيه على الاجتهاد والاستنباط.

وقد أسهب الفقهاء والأصوليون في شرح هذه القواعد والأصول

بصورة وافية في كتب الفقه والأصول.

ورغم ما تقدم فلم يكن هناك اجتهاد بالمعنى الذي نعرفه اليوم وإنما كان الناس يطلبون إلى الإمام أن يعين لهم مرجعا فيما يعرضهم من المسائل الشرعية، فيعين لهم بعض أصحابه ممن يطمئن إليهم، وممن سمع إلى حديثه ووعاه، ولم تمس الحاجة إلى الاجتهاد أكثر من هذه الحدود بسبب معاصرة الإمام المعصوم وإمكان الاتصال به ولو في موسم الحج من كل سنة. فلم يتجاوز أصحاب الأئمة ـ عدا موارد قليلة ونادرة ـ نقل الحديث.

والمجاميع الحديثية في غالب الأحوال لم تكن تجمع أبواب الفقه عامة، أو تجمع كلما صح عن الإمام في هذا الباب أو في هذه المسألة.

وربما يجوز لنا أن نقول: إن شيئا من المجاميع الحديثية التي دونت في هذا العصر لم يكن على هذا الغرار من استيعاب أبواب الفقه، وما صح عن الإمام في كل باب، فكانت الكتب والمدونات والأصول أشبه بمجموعات شخصية يجمع فيها كل راو ما سمعه عن مشايخه، أو ما سمعه عن الإمام مباشرة بصورة مبعثرة أو منظمة غير مستوعبة.

وقد يلتقي الباحث بكتاب أو كتابين يخرج عن هذا الإطار، إلا أن الطابع العام للتدوين في هذا العصر كان الصورة التي قدمناها للقارئ.

هذه هي أهم ملامح هذا العصر.

وإذا صح أن المدرسة انتقلت من الكوفة إلى المدينة، أو إلى بغداد أو إلى طوس في هذه الفترة فقد كان لفترة قصيرة، وبصورة غير كاملة وبقيت الكوفة محتفظة بمكانتها حينا طويلا من هذا العصر.

مدرسة قم وري الأُولى

يبتدئ هذا العصر من الغيبة الكبرى والربع الأول من القرن الرابع إلى النصف الأول من القرن الخامس.

في هذه الفترة انتقلت حركة التدريس والكتابة والبحث إلى مدينتي (قم وري)، وظهر في هذه الفترة شيوخ كبار من أساتذة فقه أهل البيت في هاتين المدينتين، كان لهم أكبر الأثر في تطوير الفقه الإمامي، فقد كانت قم منذ أيام الأئمة عليهم السلام مدينة معروفة بولائها وانتمائها لأهل البيت ومن أمهات المدن الشيعية، وكانت حصنا من حصون الشيعة، وعشا لآل محمد صلى الله عليه وآله، وموضع عناية خاصة من أهل البيت عليهم السلام.

وقد ورد عنهم عليهم السلام: إن البلايا مدفوعة عن قم وأهلها.

وسيأتي زمان تكون بلدة قم وأهلها حجة على الخلائق، وذلك في زمان غيبة قائمنا إلى ظهوره عجل الله فرجه، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها[1].

وروي عن أميرالمؤمنين عليه السلام: أنه قال: سلام الله على أهل قم، ورحمة الله على أهل قم، سقى الله بلادهم الغيث، وتنزل عليهم البركات فيبدل سيئاتهم حسنات، هم أهل ركوع وخشوع وسجود، وقيام وصيام، هم الفقهاء العلماء، هم أهل الدين والولاية والعبادة، وحسن العبادة[2].

(١) سفينة البحار ٢: ٤٤٥.

(٢) مجالس المؤمنين: ص ٨٤.

وكانت الري في هذا التاريخ بلدة عامرة بالمدارس والمكاتب وحافلة بالعلماء والفقهاء والمحدثين[1].

وقد كان أحد أسباب انتقال مدرسة أهل البيت من العراق إلى ايران هو المعاملة القاسية التي كان يلاقيها فقهاء الشيعة وعلماؤهم من العباسيين، فقد كانوا يطاردون من يعرف بولائه لأهل البيت عليهم السلام بمختلف ألوان الأذى والتهمة. فالتجأ فقهاء الشيعة وعلماؤها إلى قم وري، ووجدوا في هاتين البلدتين ركنا آمنا يطمئنون إليه لنشر فقه أهل البيت عليهم السلام وحديثهم.

ويظهر أن قم أو أن عصر الغيبة وعهد نيابة النواب الأربعة كانت حافلة بعلماء الشيعة وفقهائها، ومركزا فقهيا كبيرا من مراكز البحث الفقهي.

يقول الشيخ في كتاب الغيبة: أنفذ الشيخ حسين بن روح ـ رضي الله تعالى عنه ـ كتاب التأديب إلى قم، وكتب إلى جماعة الفقهاء بها وقال لهم: انظروا ما في هذا الكتاب، وانظروا هل فيه شيء يخالفكم؟[2].

وهذه الرواية التاريخية تدل على أن قم كانت في عهد حسين بن روح مركزا فقهيا حافلا بالفقهاء بحيث يراجعها الشيخ حسين بن روح نائب الإمام الخاص عجل الله فرجه ويعرض عليهم رسالة التأديب لينظروا فيها.

ووصفها الحسن بن محمد بن الحسن القمي المتوفى سنة ٣٧٨ ـ

(١) مجالس المؤمنين: ص ٩٢ و٩٣.

(٢) الكنى والألقاب ٣: ٧٦.

وهي من الفترة التي نتحدث عنها ـ في كتاب خاص ننقل عناوين أبواب منه ليلمس القارئ سعة هذه المدرسة وضخامتها في القرن الرابع وهو العصر الذي نتحدث عنه.

قال: الباب السادس عشر في ذكر أسماء بعض علماء قم، وشيء من تراجمهم، وعدد الشيعة منهم ٢٦٦ شخصا (ممن يترجم هو دون الذين لا يترجمهم). وعدد العامة ١٤ شخصا مع ذكر مصنفات كل واحد منهم ومروياته وما يتعلق بذلك[1].

إذن كانت مدرسة قم في هذه الفترة من أوسع المدارس الشيعية في الفقه والحديث وأضخمها، وكانت تضم مئات المدارس والمساجد والمكاتب، وندوات البحث والمناقشة، ومجالس الدرس والمذاكرة.

دولة آل بويه:

وقد يصح أن نقول إن من أسباب ازدهار هذه المدرسة الفقهية حكومة (آل بويه) في هذه المنطقة ـ منطقة قم وري ـ في هذه الفترة.

فقد عُرف آل بويه في التاريخ بنزعتهم الشيعية، وولائهم لأهل البيت عليهم السلام، مما بعث فقهاء الشيعة وعلماؤها أن يقصدوا هذه المنطقة ويجتمعوا فيها.

ومهما يكن من أمر فقد حفلت قم وري في هذه الفترة ـ القرن الرابع الهجري ـ بشيوخ كبار في الفقه والحديث أمثال: الشيخ الكليني

(١) مقدمة السيد حسن الخرسان على من لا يحضره الفقيه: ص (د).

المتوفى سنة ٣٢٩ هـ وابن بابويه والد الصدوق المتوفى سنة ٣٢٩ هـ وابن قولويه أستاذ الشيخ المفيد المتوفى سنة ٣٦٩ هـ وابن الجنيد المتوفى سنة ٣٨١ هـ بالري والشيخ الصدوق المتوفى سنة ٣٨١ هـ والمدفون بالري، وغيرهم من كبار مشايخ الشيعة في الفقه والحديث.

ونشطت في هذه الفترة حركة التأليف والبحث الفقهي وتدوين المجاميع الحديثية الموسعة كالكافي ومن لا يحضره الفقيه، وغيرهما من المجاميع الحديثية والكتب الفقهية.

النشاط الفكري في هذه المدرسة:

وقد بلغ النشاط الفكري في التأليف والبحث الفقهي، وتدوين الأحاديث وجمعها وتنسيقها غايته في هذه الفترة، وخلفت لنا هذه الفترة ثروة فكرية ضخمة من أهم ما أنتجته مدارس الفقه والحديث الشيعي في تاريخها.

من رجال هذه المرحلة:

ولكي يلمس القارئ حدود هذه المدرسة وضخامتها نشير إلى أسماء بعض الفقهاء والمحدثين اللامعين من هذه المدرسة، من الذين عاشوا خلال هذه الفترة، ثم يمعن النظر بعد ذلك في كتب التراجم والرجال والتاريخ من أراد أن يستقصي البحث عن ذلك:

١ـ علي بن إبراهيم:

وعلي بن إبراهيم القمي شيخ الكليني في الحديث، كان ثقة في

الحديث ثبتا معتمدا صحيح المذهب، سمع فأكثر، وصنف كتبا، منها: قرب الاسناد، وكتاب الشرائع، وكتاب الحيض[1].

٢. الكليني:

كان محمد بن يعقوب الكليني معاصرا لعلي بن الحسين بن بابويه ـ والد الشيخ الصدوق ـ وتوفيا في سنة واحدة، وهي المعروفة عند الفقهاء بسنة موت الفقهاء.

أكبر أثر تركه الشيخ الكليني من بعده هو موسوعته الحديثية الكبرى (الكافي) في الأصول والفروع، وكان تأليف الكافي أول محاولة من نوعها لجمع الحديث وتبويبه، وتنظيم أبواب الفقه والأصول. يقول هو رحمه الله في مطلع كتابه: كتاب كاف يجمع من جميع فنون علم الدين ما يكتفي به المتعلم، ويرجع إليه المسترشد، ويأخذ منه من يريد علم الدين، والعمل به بالآثار الصحيحة عن الصادقين عليهم السلام[2].

لقد كان كتاب (الكافي) محاولة رائدة أولى لجمع وتنظيم أبواب الفقه والأصول، وقد جمع رحمه الله في موسوعته هذه ما صح لديه من أحاديث الأئمة الهداة عليهم السلام.

ولذلك كله كان هذا الكتاب فتحا كبيرا في عالم تدوين الحديث وموضع عناية فائقة من قبل الفقهاء من بعده.

(١) رجال النجاشي: ص ٢٦٠ تحت رقم ٦٨٠ نقلا بالمعنى.

(٢) أصول الكافي ١: ١ ـ ٨.

يقول عنه الشيخ المفيد: من أجل كتب الشيعة، وأكثرها فائدة[1].

ويقول عنه الشهيد كما في إجازته لابن الخازن: كتاب الكافي في الحديث الذي لم يعمل مثله[2].

٣. ابن قولويه:

أبو القاسم جعفر بن محمد بن جعفر بن موسى بن قولويه (٢٨٥ ـ ٣٦٨ هـ)، كان من تلامذة الكليني والراوين عنه[3] وأستاذ أبي عبدالله المفيد[4].

قال عنه النجاشي: كان من ثقات أصحابنا وأجلائهم في الحديث والفقه... وكل ما يوصف[5] به الناس من جميل وثقة وفقه فهو فوقه، له كتب حسان[6] عد منها جملة كبيرة.

٤. آل ابن بابويه:

من بيوتات الفقه والحديث في قم، وموضع عناية خاصة من الحجة القائم عجل الله فرجه ونوابه، ومن فقهاء الشيعة ومحدثيهم، وقد كان والد الشيخ الصدوق علي بن بابويه القمي من رؤساء المذهب وفقهائهم

(١) تصحيح الاعتقاد: ص ٢٧.

(٢) بحار الأنوار ٢٥: ٦٧.

(٣) راجع مقدمة الدكتور حسين علي محفوظ على الكافي: ص ٢٤.

(٤) الكنى والألقاب ١: ٣٧٩.

(٥) المراد إن كل ما يوصف به الناس المبرزون من علم وفضل وتقى وشجاعة فهو فوقهم جميعا في هذه الخصال.

(٦) رجال النجاشي: ص ١٢٣ تحت رقم ٣١٨.

الكبار.

يقول عنه العلامة في الخلاصة: شيخ القميين في عصره وفقيههم وثقتهم[١].

وذكر ابن النديم في الفهرست أن الصدوق ذكر مائتي كتاب لوالده علي بن الحسين[٢].

وهذا رقم كبير يشير إلى وجود حركة فكرية قوية، ونشاط ملموس في هذه الفترة في التأليف والتدوين في مدرسة قم وري.

كان ولداه أبو جعفر محمد (المشتهر بالصدوق) وأبو عبدالله حسين (أخو الصدوق) من كبار فقهاء الشيعة ومحدثيهم.

قال عنهما الشيخ في الغيبة: فقيهان ماهران يحفظان ما لا يحفظ غيرهما من أهل قم.

وقد وجد هذان الأخوان من عناية آل بويه وبصورة خاصة ركن الدين والوزير الصاحب بن عباد ما كان يبعثهما على التأليف والكتابة والبحث الفقهي، فقد كتب أبو عبدالله الحسين للصاحب بن عباد كثيراً من مؤلفاته، ودوّن الصدوق له مجموعته الحديثية الكبيرة (عيون أخبار الرضا).

وكان للصدوق كما يذكر العلامة نحو من ثلاثمائة مؤلف[٣] ذكر اسم كثير منها في كتابه الكبير.

---

(١) نامه دانشوران ١: ٢.

(٢) فهرست ابن النديم: ص ٢٩١.

(٣) الكنى والألقاب ١: ٢٢١.

ولو ضُم هذا العدد الضخم إلى مؤلفات والده في الفقه والحديث لدل على وجود نشاط فكري وفقهي كبير في هذه المدرسة، وفي هذا البيت بالخصوص بيت (ابن بابويه).

وكتاب (من لا يحضره الفقيه) هي الموسوعة الحديثية الجامعة الثانية التي الفت في الفقه في هذه الفترة بمدرسة قم وري.

وقد حاول الصدوق في موسوعته هذه أن يجمع أبعاد الفقه وينظمه في كتاب، ويجمع ما صح لديه من أحاديث فيه، ويجعله في متناول الفقيه أو في متناول من لا يحضره الفقيه من العامة حينما تعرضه مسألة من المسائل من نحو كتاب (من لا يحضره الطبيب) لمحمد بن زكريا[١].

وأحصيت أحاديث الكتاب فكانت خمسة آلاف وتسعمائة وثلاث وستون حديثا.

ومهما يكن من أمر فقد كان الكتاب فتحا ثانيا في تدوين الحديث وجمعه بعد تأليف الكافي، ولا نريد أن نستقصي أسماء فقهاء ومحدثي هذه المدرسة، فإن ذلك يؤدي بنا إلى أن نخرج عن حدود الدراسة التي نحن بصددها.

ويكفي القارئ أن يراجع كتاب (مجالس المؤمنين) للقاضي نور الله التستري ليلمس سعة هذه المدرسة وضخامتها، وما أنشأت هذه المدرسة من كبار الفقهاء والمحدثين، وما خلفته من موسوعات فقهية وحديثية وتراث فكري ضخم.

---

(١) راجع من لا يحضره الفقيه ١: ٣.

ملامح المدرسة:

وبعد أن لمس القارئ في حدود ما تقدم من حديث، حدود هذه المدرسة وضخامتها وسعتها، وبعض فقهائها البارزين، وبعض التراث الفقهي والحديثي الذي خلفته لنا هذه الفترة ننتقل به إلى استخلاص ملامح هذه المدرسة، ودراسة الميزات التي تميزت بها هذه المدرسة عن المدارس السابقة عليها، وما قدمته هذه المدرسة من أثر في تطوير البحث الفقهي.

وأولى هذه الملامح وأهمها التوسعة في تدوين الحديث وتجميعه وتنظيمه. فقد كان تدوين الحديث قبل هذه الفترة كما أشرنا إليه في الحديث عن العصر الثاني لا يتجاوز عن التدوين الشخصي لما سمعه الراوي من الإمام مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مبعثرة حينا ومنتظمة في بعض الأحيان.

ولم يتفق لأحد من المحدثين والفقهاء في العصر الثاني أن يجمع ما صح في الأحكام من الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام وينظم ذلك، كما لوحظ في المجموعتين الحديثيتين اللتين خلفتهما هذه المدرسة وهما: (الكافي، ومن لا يحضره الفقيه).

وهذه الخطوة ـ خطوة جمع الأحاديث وتنظيمها ـ تعد من حسنات هذه المدرسة، فقد كثرت حاجة الفقهاء إلى مراجعة الروايات والأحاديث حين الحاجة، وكانت الأحاديث منتشرة بصورة غير منظمة من حيث التبويب والجمع في آلاف الكتب والأصول والرسائل التي

خلفها أصحاب الأئمة ومحدثو الشيعة، ولم يكن من اليسير بالطبع الإلمام بما ورد من أحاديث المسألة الفقهية لكل أحد، فكانت محاولة الجمع والتبويب في هذه الفترة لسد هذه الحاجة.

وظهر في هذه الفترة لون جديد من الكتابة الفقهية، وهي الرسائل الجوابية فقد كان أتباع مدرسة أهل البيت يسألون الفقهاء من أطراف العالم الإسلامي ما تمس إليه الحاجة من المسائل بشكل استفسار، فكان الفقهاء يجيبون على هذه الأسئلة. وقد يطول الجواب، ويستعرض المجيب الأحاديث الواردة في الباب، فيكون الجواب رسالة فقهية جوابية صغيرة في المسألة الفقهية.

وفي فهارس كتب الشيعة كالذريعة ورجال النجاشي، وغيرهما يجد الباحث آلاف الرسائل الفقهية من هذا القبيل.

وكان لشيوع هذا اللون من الكتب الفقهية دور كبير في تطوير البحث الفقهي في هذه الفترة، فكان الفقيه يبحث المسألة، وقد يلقيها على طلابه في مجلس الدرس، ويستعرض ما ورد فيها من أحاديث، فكانت نقطة بداية للرأي والنظر والتعميق والتدقيق في المسألة الفقهية.

ومع ذلك فقد كان البحث الفقهي في هذه الفترة يقضي مراحل نموه الأولية، ولم يقدر له بعد أن يبلغ حد المراهقة، فكانت الرسائل الفقهية في هذه المدرسة لا تتجاوز عرض الأحاديث من غير تعرض للمناقشة والاحتجاج ونقد الآراء وبحثها، وتفريع فروع جديدة عليها.

ولم يتجاوز البحث الفقهي في الغالب حدود الفروع الفقهية المذكورة في حديث أهل البيت عليهم السلام، ولم ينهض الفقهاء بصورة

كاملة لتفريع فروع جديدة للمناقشة والرأي.

وكانت الفتاوى في الغالب نصوص الأحاديث مع إسقاط الاسناد وبعض الألفاظ في بعض الحالات.

ومن لاحظ ما كتبه علي بن بابويه القمي (والد الصدوق) في رسالته التي كتبها إلى ولده يذكر فيها فتاواه، وما كتبه الصدوق كالمقنع والهداية، وما كتبه جعفر بن محمد بن قولويه، وغيرهم من هذه الطبقة يطمئن إلى أن النهج العام في البحث الفقهي في هذه الفترة لم يتجاوز حدود عرض ما صح من الروايات والأحاديث، رغم توسع المدرسة في هذه الفترة، وتلك هي أهم ملامح مدرسة قم وري في هذه الفترة.

ﮪﮫ

مدرسة بغداد

في القرن الخامس الهجري انتقلت المدرسة من قم وري إلى بغداد ـ حاضرة العالم الإسلامي عامة ـ وكان لهذا الانتقال أسباب عديدة:

الأول: ضعف جهاز الحكم العباسي، حيث ضعفت سيطرتهم في هذه الفترة، ودب الانحلال في كيان الجهاز، فلم يجد الجهاز القوة الكافية لملاحقة الشيعة والضغط عليهم، كما كان يفعل من قبل المنصور والرشيد والمتوكل والمعتصم وأضرابهم من الخلفاء العباسيين. فوجد فقهاء الشيعة مجالا للظهور ونشر فقه أهل البيت وممارسة البحث الفقهي بصورة علنية.

الثاني: ظهور شخصيات فقهية من بيوتات كبيرة، كالشيخ المفيد والسيد المرتضى، فقد كان هؤلاء يستغلون مكانة بيوتهم الاجتماعية، ومكاناتهم السياسية في نشر فقه أهل البيت وتطوير دراسة الفقه.

الثالث: توسع المدرسة وازدهارها مما أدى بها إلى الانتقال إلى بغداد ـ حاضرة العالم الإسلامي في ذلك الوقت ـ وقد كانت هذه البيئة الجديدة صالحة لتقبل هذه المدرسة، وتطويرها وخدمتها.

فهي مركز ثقافي كبير من مراكز الحركة العقلية في العالم الإسلامي، يقطنها الآلاف من الفقهاء والمحدثين، وفيها الآلاف من المدارس والمكاتب والمساجد التي كان يحتشد فيها جماهير الطلاب والمدرسين والعلماء كل يوم للدرس والمطالعة والبحث والمناقشة،

فكان لانتقال المدرسة إلى هذا الجو الفكري على يد علماء كبار أمثال المفيد والمرتضى والطوسي أثر كبير في الحركة الفكرية القائمة في حينه، فقد تكاملت مدرسة الفقه الشيعي في قم وري وتأصلت، وظهرت ملامح الاستقلال عليها وتبلورت أصولها وقواعدها في بغداد.

ورغم كثرة مدارس البحث الفقهي في بغداد في ذلك الحين فقد كانت مدرسة أهل البيت عليهم السلام أوسعها وأعمقها جذورا وأصولا، وأكثرها تأصلا واستعدادا، وأقومها في الاستدلال والاحتجاج.

وكل ذلك كان يبعث طلاب الفقه على الالتفات حول هذه المدرسة أكثر من غيرها.

فقد كان يحضر درس الشيخ الطوسي حوالي ثلاثمائة مجتهد من الشيعة. ومن العامة ما لا يحصى[1].

ومن المستحسن بنا ـ ونحن بصدد دراسة الفقه الشيعي في هذا العصر أن نمر سريعا على تراجم ألمع فقهاء هذه الدورة:

١. الشيخ المفيد:

أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان المفيد البغدادي، ولد في (عكبرا) وانتقل منها في أيام صباه إلى بغداد بصحبة والده، ونشأ في بغداد، وتفرغ منذ نعومة أظفاره لطلب العلم، فعرف وهو بعد صغير يرتاد حلقات الدراسة بالفضل والنبوغ.

---

(١) راجع مقدمة الشيخ آغا بزرك الطهراني على التبيان: ص (د).

ومما يذكر في نبوغه أنه حضر في مفتتح حياته الدراسية في بغداد عند الشيخ أبي ياسر بباب خراسان من مشايخ السنة، فأفحم الشيخ في الدرس، فأرجعه الشيخ أبو ياسر إلى الشيخ الرماني وكان من كبار علماء السنة في بغداد، وجلس التلميذ الصغير في زاوية من المجلس يستمع إلى درس الشيخ، وحين ختم الشيخ الرماني درسه سأل رجل من البصرة عن حديثي الغدير والغار، فقال الرماني له:

حديث الغدير رواية، وحديث الغار دراية، ولا تقدم الرواية على الدراية... فسكت السائل ولم يحر جوابا.

فتقدم التلميذ الناشئ وهو في آخر المجلس إلى الشيخ واخترق إليه الصفوف وقال له:

ماذا تقول في الذي يخرج على إمام زمانه؟

فقال له الشيخ: كافر، ثم استدرك فقال: فاسق.

فقال المفيد: فإذا تقول في إمامة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب؟

قال له الشيخ: لاشك في إمامته.

فقال: فماذا تقول في خروج طلحة والزبير عليه؟

فقال له الرماني ـ وهو مأخوذ بنباهة هذا الطالب الناشئ الذي يلتقيه لأول مرة في مجلس الدرس ـ إنهما تابا بعد ذلك.

فقال المفيد ـ وقد تمكن من أستاذه ـ إن توبتهما رواية، وحربهما للإمام دراية، ولا ترفع اليد بالرواية عن الدراية.

فتضايق الشيخ الرماني أمام تلاميذه وأفحم، ولم يحر جوابا أمام التلميذ الناشئ، فاستبقاه في المجلس وسأله عن شيوخه ودرسه،

وكتب رقعة إلى أستاذه أبي ياسر يعرفه بقيمة تلميذه الناشئ ولقبه بـ (المفيد) وعرف من ذلك الوقت بالمفيد[1].

ومهما يكن من أمر فقد ظهر الشيخ المفيد في مدة قليلة على أقرانه، وحفه شيوخه وأساتذته ـ كالشيخ الصدوق وغيره ـ بعنايتهم لما لمسوا فيه من مؤهلات وقابليات يندر وجودها في غيره.

واستقل الشيخ المفيد بالتدريس في بغداد وهو بعد لم يتجاوز سني الشباب، وتفرغ للفقه والكلام، وكان يحضر مجلس درسه آلاف الطلاب، من الشيعة والسنة، وبرز من تلاميذه رجال كبار، أمثال: السيد المرتضى والشيخ الطوسي، تابعوا أستاذهم المفيد في توسعة المدرسة وتطويرها، وإدخال تغييرات جديدة عليها.

وقد قدر للشيخ المفيد أن يكون رائدا فكريا لهذا العصر من عصور الفقه الإسلامي. وأن يدخل تغييرات وتحسينات كثيرة على الفقه ويطور من مناهجه وقواعده.

ومن بعده كان تلاميذه وتلاميذ تلاميذه يعترفون له بهذا الحق.

يقول العلامة الحلي في شأنه: من أجل مشايخ الشيعة ورئيسهم وأستاذهم، وكل من تأخر عنه استفاد منه، وفضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية[2].

وقد أحصى له السيد الأمين قريبا من مائتي كتاب ورسالة في الفقه والكلام والحديث.

---

(١) راجع مجالس المؤمنين ١: ٤٦٤.

(٢) أعيان الشيعة ٦: ٢٠.

ومن استعراض حياة المفيد يستظهر الباحث أن الشيخ المفيد استطاع أن يغير الجو الفكري في بغداد ـ حاضرة العالم الإسلامي يومذاك ـ وأن يدير ندوات الفقه والكلام، ويجذب طلاب العلم حتى كاد أن يغطي المدارس الفقهية والكلامية الأخرى، والفقهاء والمتكلمين من أتباع سائر المذاهب.

وقد كان الفقهاء والمتكلمون يقصدونه من أقطار بعيدة، وكان بيته ندوة عامرة بحديث الفقه والكلام، والنقاش والأخذ والرد.

ويبدو أن ذلك كله جعل ظله ثقيلا على المذاهب الكلامية والفقهية الأخرى، وعلى جهاز الحكم الذي كان يدعو إلى مقاطعة مدرسة أهل البيت بصورة خاصة. ويلمح الباحث هذا الإحساس من عبارة الخطيب الجافية في تعريف الشيخ.

قال الخطيب في تاريخ بغداد: محمد بن محمد بن النعمان أبو عبدالله المعروف بابن المعلم شيخ الرافضة والتعلم على مذاهبهم، صنف كتبا كثيرة في إضلالهم، والذب عن اعتقاداتهم ومقالاتهم، والطعن على السلف الماضين من الصحابة والتابعين، وعامة الفقهاء والمجتهدين، وكان أحد أئمة الضلال، هلك به خلق من الناس إلى أن أراح الله المسلمين منه[1].

وقال عنه اليافعي في مرآة الجنان: عالم الشيعة وإمام الرافضة، صاحب التصانيف الكثيرة، المعروف بالمفيد وبابن المعلم أيضا،

---

(١) تاريخ بغداد ٣: ٢٣١.

البارع في الكلام والجدل والفقه، وكان ينازع كل عقيدة بالجلالة والعظمة، ومقدما في الدولة البويهية. وكان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، حسن اللباس. وكان عضد الدولة ربما زار الشيخ المفيد، وكان شيخا ربعة نحيفا أسمر عاش ستا وسبعين سنة، وله أكثر من مائتي مصنف، كان يوم وفاته يوما مشهودا، وشيعه ثمانون ألفا من الرافضة والشيعة، وأراح الله منه أهل السنة والجماعة[1].

ومهما كانت عبارات الإطراء والجرح فقد أتيح للشيخ المفيد أن يكون مجددا في الفقه والكلام. في هذه الدورة، وأن يطبع مدرسة أهل البيت في الفقه بطابع الجلالة والاحترام، وأن يفرض وجودها على أجواء بغداد الفكرية، وهي يومذاك من أهم مراكز الحركة العقلية في العالم الإسلامي، وأن يكون رائدا للمدرسة، ومربيا لأساتذتها وعلمائها.

٢. السيد المرتضى:

تلمذ المرتضى علم الهدى وأخوه الرضي على الشيخ المفيد وعنى بهما الشيخ عناية فائقة، وتفرغ المرتضى في الفقه بجانب تخصصه في الأدب، حتى كان عز الدين أحمد بن مقبل يقول: لو حلف إنسان أن السيد المرتضى كان أعلم بالعربية من العرب لم يكن عندي آثما[2].

وإلى جانب مؤهلات السيد المرتضى الفكرية وجهده الكبير في

(١) مجالس المؤمنين ١: ٤٦٦.

(٢) أعيان الشيعة ٤١: ١٩٠.

طلب العلم وعناية أستاذه الشيخ المفيد به يجب أن نذكر مكانة أسرته الاجتماعية والسياسية والعلمية ببغداد.

ولم يتوف أستاذه الأكبر ـ المفيد ـ حتى خلفه، وتولى بنفسه مهمة التدريس وزعامة الطائفة، واحتشد حوله الطلاب، وكان يجري عليهم حقوقا تختلف حسب مكانة الطالب منه ومؤهلاته.

وحاول السيد المرتضى أن يتابع خطوات أستاذه المفيد في تطوير مناهج الفقه ودراسة الأصول، فأوتي حظا وافرا في هذا المجال، وتابع خطوات المفيد، وطور كثيرا من مناهج الفقه، وكتب الأصول ودرسها.

وربما يصح اعتباره من أسبق من ارتاد هذا الحقل من حقول الفكر الإسلامي، وفتح كثيرا من مسائل الأصول، وبنى الفروع على الأصول.

وكتابه (الذريعة) خير شاهد على ما نقول، فمن يقرأ الذريعة يجد فيه الملامح الأولية لنشوء الأصول.

وقد أحصى له السيد الأمين رحمه الله في الأعيان ما يقرب من تسعين مجلدا من مؤلفاته مما عثر على اسمه.

ومما يدل على جلالة مكانة السيد العلمية ما حكاه القاضي التنوخي صاحب السيد، فقال: إن مولد السيد سنة ٣٥٥ هـ وخلف بعد وفاته ثمانين ألف مجلد من مقروءاته ومصنفاته ومخطوطاته[1].

(١) المؤرخ الجليل الشيخ آغا بزرك الطهراني في مقدمته على التبيان: ص (ج ـ د).

٣. الشيخ الطوسي:

ولد شيخ الطائفة في طوس في شهر رمضان سنة ٣٨٥ بعد أربع سنين من وفاة الشيخ الصدوق، وهاجر إلى العراق فهبط بغداد سنة ٤٠٨ وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وكانت زعامة المذهب الجعفري يومذاك لشيخ الأمة وعلم الشيعة محمد بن محمد بن النعمان الشهير بالشيخ المفيد فلازمه ملازمة الظل. وعكف على الاستفادة منه، وأدرك الشيخ الحسين بن عبيد الله ابن الغضائري المتوفى سنة ٤١١، وشارك النجاشي في جملة من مشايخه.

وبقي على اتصاله بشيخه حتى اختار لأستاذه دار بقائه في سنة ٤١٣ فانتقلت زعامة الدين ورئاسة المذهب إلى علامة تلاميذه علم الهدى السيد المرتضى، فانحاز شيخ الطائفة إليه، ولازم الحضور تحت منبره، وعنى به المرتضى، وبالغ في توجيهه وتلقينه، واهتم له أكثر من سائر تلاميذه، وعين له كل شهر اثني عشر دينارا، وبقي ملازما له طيلة ثلاث وعشرين سنة حتى توفي السيد المعظم سنة ٤٣٦، فاستقل شيخ الطائفة بالإمامة، وظهر على منصة الزعامة، وأصبح علما للشيعة وناشرا للشريعة، وكانت داره في الكرخ مأوى الأمة ومقصد الوفاد، يأتونها لحل المشاكل وإيضاح المسائل، وقد تقاطر عليه العلماء والفضلاء للتلمذة عليه والحضور تحت منبره، وقصدوه من كل بلد ومكان، وبلغت عدة تلاميذه ثلاثمائة من مجتهدي الشيعة، ومن العامة ما لا

يحصى كثرة[١].

وقد نشأ الشيخ الطوسي على يد علماء كبار وشيوخ أجلاء في الفقه، فحضر درس ابن الغضائري، ولازم الشيخ المفيد خمس سنوات، ولازم المرتضى ثلاث وعشرين سنة.

وكان للمفيد والمرتضى أثر كبير في تكوين ذهنية الشيخ الطوسي وثقافته. وكان في هذه الفترة يعيش تجربة تطوير البحث الفقهي والأصولي في ظل أستاذيه الكبيرين، وكانت فترة مخاض تمخضت عنها المدرسة الفقهية الجديدة.

وفترة المخاض عادة تقترن بكثير من الاضطراب والقلق الفكري وعدم الاستقرار.

عاش الشيخ مخاض هذه المدرسة في حياة أستاذيه الكبيرين وعانى ما تتطلب هذه الفترة من جهد وتعب.

واستمر بعد أستاذيه في تطوير المدرسة بعد أن بلغت في حياة المرتضى دور المراهقة، وتسلم الشيخ المدرسة عن أستاذه المرتضى في هذا الدور. ولا يختلف هذا الدور فيما يصيب القائمين بها من تعب وجهد، واضطراب فكري دائم، وعدم استقرار عن دور المخاض.

وكذلك كانت حياة الشيخ الطوسي في مرحلتي التلمذة والتدريس سلسلة طويلة من المحاولات التجديدية لتطوير الفقه وصياغته من

(١) المؤرخ الجليل الشيخ آغا بزرك الطهراني في مقدمته على التبيان: ص (ج ـ د).

جديد، وتجديد أصول الصناعة والصياغة والاستدلال فيه.

ولاقى الشيخ الطوسي في سبيل ذلك كثيرا من التعب والجهد وأعانه على ذلك صبره على العمل، ومواصلته للتأليف والتدريس والتفكير، ومؤهلاته الفكرية الخاصة، ونبوغه الذهني، وعناية أستاذيه به، وتوفر الكتب لديه.

وقد أنعم الله على شيخنا الطوسي بهذه النعم كلها، فقد كانت في متناول الشيخ مكتبتان كبيرتان يستعين بهما في التأليف والمطالعة والإلمام بأمهات الكتب الفقهية:

إحداهما (مكتبة الشيعة) التي أنشأها أبو نصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة البويهي، جمع فيها ما تفرق من كتب فارس والهند واستكتب تآليف أهل الهند والصين والروم، وأهدى إليها العلماء كتبهم، فكانت من أغنى مكاتب بغداد، وقد أمر بإحراقها (طغرل بيك) فيما أحرق من مؤسسات الشيعة وبيوتهم ومدارسهم في الكرخ.

ثانيتهما (مكتبة أستاذه السيد المرتضى) التي كانت تحتوي على ثمانين ألف كتاب، والتي لازمها ثماني وعشرين سنة.

كل هذه العوامل، وعوامل أخرى أدت إلى نشوء الشيخ الطوسي وتكوين ذهنيته، وثقافته الواسعة.

وقد انتقل الشيخ الطوسي إلى النجف الأشرف سنة ٤٤٨ هـ حينما كبس على داره وأخذ ما وجد من دفاتره وكرسي كان يجلس عليه للكلام كما يقول ابن الجوزي.

وظل بالنجف يمارس مهمته في زعامة الشيعة والتدريس والتأليف

وتطوير مناهج الدراسة الفقهية اثني عشر سنة حتى أن آثره الله لدار لقائه في محرم سنة ٤٦٠ هـ عن خمس وسبعين سنة.

ومهما كان من أمر فقد أتيح للشيخ الطوسي أن يبلغ بالمدرسة التي فتح أبوابها أستاذيه المفيد والمرتضى إلى القمة، ويفرض وجودها على الأجواء الثقافية في بغداد وفي العراق عامة.

حتى أن الخليفة القائم بأمر الله بن القادر بالله جعل له كرسي الإفادة والبحث، وكان لهذا الكرسي مقام كبير يومذاك ببغداد.

وقدر له لأول مرة أن يفتح باب الاجتهاد المطلق، والنظر والرأي على مصراعيه واسعا، وأن ينظم مناهج الاستنباط والاجتهاد، ويؤصل الأصول، ويضع مناهج البحث للأصول، ويفرع المسائل، ويضع أصول الدراسة في الفقه، وعشرات من أمثالها مما قدمه الشيخ للطوسي إلى المدرسة الفقهية من الخدمات.

وقد ذكر العلامة الجليل الشيخ آغا بزرك (سبعا وأربعين مؤلفا للشيخ مما وصل إليه من أسماء مصنفاته).

ملامح المدرسة:

ومما تقدم تبين للباحث أن (مدرسة بغداد) كانت فتحا جديدا في عالم البحث الفقهي بصورة عامة، فقد كان البحث الفقهي ـ كما استعرضنا ملامحه بإجمال ـ في مدارس (المدينة والكوفة وقم) لا يخرج عن حدود استعراض السنة ونقل الحديث، ولم يبلغ رغم تطور الدراسة في عهودها الثلاثة مرحلة الرأي والاجتهاد.

ولم نلمس في هذه العهود الثلاثة ملامح عن الصناعة الفقهية والأصولية فيما بين أيدينا من آثار عصور الفقه الثلاثة الأولى بشكل ملموس واضح الملامح.

ولأول مرة يلمس الباحث آثار الصناعة والصياغة الفنية، والاجتهاد والرأي والتفريع في كتابات هذا العصر، ولاسيما كتب المرتضى الأصولية وكتب الشيخ الفقهية والأصولية.

ولو حاول الباحث أن يدمج العصور الأولى بعضها في بعض، ويعتبر هذه الفترة فاتحة عصر جديد ومدرسة جديدة في الفقه لم يبتعد كثيرا عن الصواب.

ومهما يكن من أمر فلنحاول أن ندرس ملامح هذه المدرسة مرة أخرى، ليتاح لنا أن نقيس بدقة أبعاد هذه المدرسة، ونضع لها حدودا تفصلها عن المدارس السابقة عليها واللاحقة لها.

وأولى هذه الملامح أن الفقه خرج في هذا الدور عن الاقتصار على استعراض نصوص الكتاب، وما صح من السنة إلى معالجة النصوص، واستخدام الأصول والقواعد، فقد كانت مهمة البحث الفقهي في الأدوار السابقة عرض النصوص وفهمها وتذوقها.

ولأمر ما يطلق على هذا العلم اسم (الفقه)، فالفقه هو الفهم، ومهمة الفقيه قبل هذه المرحلة ما كانت تتجاوز في الأعم الأغلب فهم النصوص الصحيحة وتذوقها.

وفي هذه المرحلة انقلبت عملية الاستنباط إلى صناعة عملية لها أصولها وقواعدها، وانفصل البحث الأصولي عن البحث الفقهي وأفرد

بدراسات ومطالعات خاصة، وقام البحث الفقهي على نتائج هذه الدراسات والمطالعات.

ولأول مرة في تاريخ الفقه الجعفري يلمح الإنسان ملامح الصناعة في كتابات الشيخ الطوسي الفقهية، وطبيعي أن الصناعة الفقهية في هذه الفترة كانت تطوي مراحلها البدائية، ولكنه مع ذلك كانت بداية لعهد جديد، وخاتمة لعهد مضيء.

ولأول مرة في هذا الدور قام السيد المرتضى بمحاولة دراسة المسائل الأصولية مفصولة عن الفقه بصورة موضوعية، وتنقيح المسائل الأصولية في كتب ودراسات مستقلة، إلا أنها كانت مع ذلك بدائية ولم تتجاوز في غالب الأحوال مباحث الألفاظ، من الأوامر والنواهي ودلالات هيئات الألفاظ وموادها وبعض المباحث العامة من الأصول.

وظاهرة ثانية من ملامح هذا العصر هو تفريع المسائل الفقهية واستحداث فروع جديدة لم تتعرض لها نصوص الروايات، وكان البحث الفقهي ـ فيما سبق هذا الدور لا يتجاوز حدود بيان الحكم الشرعي باستعراض الروايات الواردة في الباب.

ولم نعهد من أحد من الفقهاء المتقدمين على هذا العصر محاولة معالجة فروع جديدة لم تتعرض لها الروايات.

والسر واضح، فلم يقدر لفقه أهل البيت أن يدخل قبل هذا العصر دور المعالجة والصناعة وتفريع فرع على فرع آخر أو قاعدة شرعية يحتاج إلى شيء أكثر من استعراض نصوص الأحكام والقواعد، ولا

يتم ذلك عادة من غير المعالجة والصناعة. وهذا ما لم يتوفر للبحث الفقهي قبل هذا العهد.

وربما يصح أن نقول: إن الشيخ الطوسي كان أول من قام بهذه التجربة في كتابه المبسوط، فقد ذكر في أول الكتاب أن الذي دعاه إلى تصنيفه أن الإمامية لم يكونوا يفرعون الفروع إلى زمانه، وكانوا يقفون عند النصوص التي وصلت إليهم عن المتقدمين من المحدثين، وكان ذلك من دوافع الطعن على فقه أهل البيت، فقام بهذه المحاولة لسد هذا الفراغ في البحث الفقهي.

والظاهرة الثالثة من ملامح هذا العصر هو ظهور الفقه المقارن أو الخلافي. فحينما تمركزت مدرسة أهل البيت في الفقه في بغداد برزت المسائل الخلافية بصورة حادة، وأدى ذلك إلى اختلاف الفقهاء وبروز المسائل الخلافية في الفقه وأصوله بشكل مثير للانتباه، ومثير للخلاف، وكان للعامل السياسي دور مؤثر في ذلك، ومهما يكن من أمر، ومهما كانت الدوافع السياسية التي كانت تثير هذه المسائل، فقد أدى ذلك إلى خصوبة البحث الفقهي، فالخلاف قد يؤدي إلى الخصوبة، لا العقم، ويدل على خصوبة الذهنية لا عمقها.

وكان من آثار ظهور الخلاف بين الفقه الإمامي والمذاهب الفقهية الأخرى واتساع رقعة الخلاف بينها أن تفرغ فقهاء الشيعة لبحث المسائل الخلافية بصورة موضوعية وبشكل مسهب.

وظهر هذا النوع من البحث الفقهي لأول مرة في هذا العصر على يد المفيد والمرتضى والطوسي.

وتوسع الشيخ الطوسي بشكل خاص لدراسة هذا الجانب من البحث الفقهي في كتابه الكبير (الخلاف) تناول فيه المسائل الفقهية الخلافية بين الشيعة والسنة في مختلف أبواب الفقه، وتعرض في كل مسألة لما يسند الجانبين من الأدلة، وناقش آراء هذه المذاهب في كثير من المسائل. والكتاب ـ رغم قدمه ـ قيم لا يستغني عنه فقيه.

وكان من هذا القبيل استعراض المسائل التي تنفرد فيها الشيعة برأي والاستدلال له والانتصار لمذهب أهل البيت فيها.

وفي هذا الفن من فنون الفقه كتب السيد المرتضى كتاب (الانتصار) ويقال له (متفردات الإمامية) صنفه للوزير عميد الدين في بيان الفروع التي شنع على الشيعة بأنهم خالفوا فيها الإجماع.

ومن هذا القبيل أيضا كتاب (الإعلام فيما اتفقت الإمامية عليه من الأحكام مما اتفقت العامة على خلافهم فيه) للمفيد، ألفه بطلب تلميذه المرتضى.

وظاهرة رابعة من ملامح هذا العصر ظهور الإجماعات والاستدلال بها، ولا نريد هنا أن نتحدث عن حجية الإجماع وما قيل أو يقال فيه، فذلك كله خارج عن مهمتنا في هذا البحث.

وما يهمنا أن نشير إليه هو أن توسع البحث الفقهي وتكامله دفع الفقهاء إلى استخدام الإجماع فيما إذا لم يجدوا في المورد نصا أو لم يقتنعوا بسلامة النص من حيث السند أو الدلالة.

وقالوا: إن في إجماع فقهاء المذاهب عامة أو فقهاء الطائفة في عصر واحد دليلا على وجود نص شرعي يجوز الاعتماد عليه، غاب

عنا فيما فقدناه من النصوص، ولا يمكن أن يجمع فقهاء المذاهب على حكم من دون وجود نص على ذلك ولا يمكن أن يخطأ فقهاء الأمة جميعا دون أن يحصل من يخالفهم ويصيب الواقع.

وظهر الاحتجاج بالإجماع بصورة واضحة في هذا العصر عند الشيخ الطوسي بصورة خاصة.

ومؤلفات الفقهاء المتقدمين على هذا العصر، وإن كانت لا تخلو عن التمسك بالإجماع، إلا أن هذه الظاهرة تبدو في كتب الشيخ بصورة خاصة، وفي آثار هذه المدرسة بصورة عامة أكثر من أي وقت سابق.

ويتضح مما تقدم أن البحث الفقهي خطا خطوة كبيرة في هذه المرحلة من حياته، وأشرف على أعتاب مرحلة جديدة بعد أن خلف وراءه مرحلة طويلة، ودخل دور المراهقة حاملا تجارب ثلاثة قرون حافلة بالجهود المثمرة والتجارب الخصبة.

وبلغت التجربة الجديدة قمتها في حياة الشيخ الطوسي حيث قام بمحاولات تجديدية جريئة في تطوير عملية الاستنباط على الصعيد الفقهي والأصولي.

ولكي يلمس القارئ التراث الضخم الذي خلفه الشيخ والتجربة الجريئة التي خاضها في تطوير منهج البحث الفقهي ننقل إلى القارئ النص التالي من مقدمة كتابه (المبسوط)، قال في مقدمة الكتاب:

إني لا أزال أسمع معاشر مخالفينا من المتفقهة والمنتسبين إلى علم الفروع يستخفون بفقه أصحابنا الإمامية، وينسبونهم إلى قلة الفروع

وقلة السائل، ويقولون: إنهم أهل حشو ومناقضة، وإن من ينفي القياس والاجتهاد لا طريق له إلى كثرة المسائل ولا التفريع ولا الأصول، لان جل ذلك وجمهوره مأخوذ من هذين الطريقين.

وهذا جهل منهم بمذاهبنا، وقلة تأمل لأصولنا، ولو نظروا في أخبارنا وفقهنا لعلموا أن جل ما ذكروه من المسائل موجود في أخبارنا ومنصوص عليه عن أئمتنا الذين قولهم في الحجة يجري مجرى قول النبيﷺ، إما خصوصا أو عموما أو تصريحا أو تلويحا.

وأما ما كثروا به كتبهم من مسائل الفروع فلا فرع من ذلك إلا وله مدخل في أصولنا ومخرج على مذاهبنا، لا على وجه القياس بل على طريقة توجب علما يجب العمل عليها، ويسوغ المسير إليها من البناء على الأصل وبراءة الذمة وغير ذلك.

مع أن أكثر الفروع لها مدخل فيما نص عليه أصحابنا، وإنما كثر عددها عند الفقهاء بتركيبهم المسائل بعضها على بعض وتعليقها والتدقيق فيها، حتى أن كثيرا من المسائل الواضحة دق لضرب من الصناعة وإن كانت المسألة معلومة واضحة.

وكنت على قديم الوقت وحديثه متشوق النفس إلى عمل كتاب يشتمل على ذلك تتوق نفسي إليه، فيقطعني عن ذلك القواطع وتشغلني الشواغل، وتضعف نيتي أيضا فيه قلة رغبة هذه الطائفة فيه وترك عنايتهم به لأنهم ألفوا الأخبار وما رووه من صريح الألفاظ، حتى أن مسألة لو غير لفظها وعبر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم لعجبوا منه، وقصر فهمهم عنها.

وكنت عملت على قديم الوقت كتاب (النهاية) وذكرت جميع ما رواه أصحابنا في مصنفاتهم وأصولها من المسائل، وفرقوه في كتبهم، ورتبته ترتيب الفقه، وجمعت بين النظائر، ورتبت فيه الكتب على ما رتبت للعلة التي بينتها هناك، ولم أتعرض للتفريع على المسائل، ولا لتعقيد الأبواب وترتيب المسائل وتعليقها والجمع بين نظائرها، بل أوردت جميع ذلك أو أكثره بالألفاظ المنقولة حتى لا يستوحشوا من ذلك، وعملت بآخره مختصرا حمل العقود في العبادات سلكت فيه طريق الإيجاز والاختصار وعقود الأبواب فيما يتعلق بالعبادات، ووعدت فيه أن أعمل كتابا في الفروع خاصة يضاف إلى كتاب (النهاية) ويجتمع معه، فيكون كاملا كافيا في جميع ما يحتاج إليه.

ثم رأيت أن ذلك يكون مبتورا يصعب فهمه على الناظر فيه، لان الفرع إنما يفهمه إذا ضبط الأصل معه فعدلت إلى عمل كتاب يشتمل على عدد يجمع كتب الفقه التي فصلها الفقهاء، وهي نحو من ثلاثين كتابا أذكر كل كتاب منه على غاية ما يمكن تلخيصه من الألفاظ، واقتصرت على مجرد الفقه، دون الأدعية والآداب، وأعقد فيه الأبواب، واقسم فيه المسائل، وأجمع بين النظائر واستوفيه غاية الاستيفاء، وأذكر أكثر الفروع التي ذكرها المخالفون، وأقول ما عندي على ما تقتضيه مذاهبنا وتوجيه أصولنا، بعد أن اذكر أصول جميع المسائل[1].

(١) كتاب المبسوط للشيخ الطوسي الطبعة الحروفية الثانية: ج ١ ص ٢ و٣.

وهذا الحديث يشعرنا بضخامة العمل الذي قام به الشيخ في مجال البحث الفقهي والأصولي، فقد كان المتقدمون من الفقهاء يقتصرون على الفروع المذكورة في نصوص الأحاديث، ويعرضون عن تفريع فروع جديدة على هذه الفروع، واستنتاج أحكام جديدة لم يتعرض لها النص بدلالة المطابقة.

وكان فقهاء المذاهب الأخرى يجدون في هذا الإعراض والاقتصار مجالا للمؤاخذة والانتقاص، ويعتبرون ذلك من آثار الإعراض عن الأخذ بالقياس والرأي، فحاول الشيخ أن يدحض هذا الرأي، ويعلن خصوبة البحث الفقهي عند الشيعة، وعدم عجزه عن تناول فروع ومسائل جديدة مستحدثة، وأن مدارك الفقه الإمامي لا تقصر عن استيعاب فرع من الفرع مهما كان، ولا يجد الفقيه فرعا لا يجد له في أصول الفقه الإمامي وأحكامه علاجا.

ووجد ثانيا جمود الفقهاء المتقدمين على ألفاظ ومباني وأصول خاصة حتى أن أحدهم يستوحش لو بدل لفظ مكان لفظ آخر، فحاول أن يقضي على هذا الجمود، ويعيد صياغة الفقه والاستنباط من جديد بما يراه من موازين وأصول وقواعد تلائم مصادر التشريع.

ووجد ثالثا أن الفروع الفقهية مبعثرة خلال الكتب الفقهية بصورة مشوشة لا يجمعها جامع، ولا يضم بعضها إلى بعض بتبويب خاص، فحاول أن يجمع بين النظائر، وينظمها في أبواب خاصة، ويضم المسائل بعضها إلى بعض وينسقها.

ووجد رابعا أن نصوص الحديث تعرض للاحتجاج بها على

الحكم عرضا من غير أن يعالج، والحكم الشرعي يؤخذ من مدلول النص أخذا مباشرا من دون أن يتوسط بين العرض والعطاء صناعة ومعالجة، وكانت نتيجة ذلك كله أن الفقه ظل منتصرا على استعراض فروع فقهية محدودة تحددها مداليل النصوص المطابقية.

وحاول الشيخ لتلافي هذا النقص أن يبني الفروع على الأصول، وان يصيغ عملية الاستنباط في قالب الصناعة والفن، وأن يؤسس الأصول ويستخرج القواعد التي يبني عليها الفقيه في الاستنباط، حتى يوسع من أبعاد البحث الفقهي، ويمسح عنها سمات العجز والقصور عن تناول المسائل الجديدة والفروع المستحدثة.

ويظهر للباحثين أن هذا العجز لم يكن لقصور في أداة الاستنباط عند الشيعة وإنما كان لبساطة المحاولات والتجارب التي قام بها السلف في الاستنباط، وبداية عملية الاجتهاد لديهم لطبيعة المرحلة التي كان يمر بها الفقه في تلك العصور.

ﮋﮊ

مدرسة الحلة

برزت مدرسة الحلة الفقهية بعد احتلال بغداد على يد هولاكو التتار، فقد كانت مدرسة بغداد قبل الاحتلال حافلة بالفقهاء والباحثين وحلقات الدراسة الواسعة، وكان النشاط الفكري فيما قبل الاحتلال على قدم وساق.

وحينما احتلت بغداد من قبل المغول أوفد أهل الحلة وفدا إلى قيادة الجيش المغولي يلتمسون الأمان لبلدهم، فاستجاب لهم هولاكو وآمنهم على بلدهم.

وبذلك ظلت الحلة مأمونة من النكبة التي حلت بسائر البلاد في محنة الاحتلال المغولي، وأخذت تستقطب الشاردين من بغداد من الطلاب والأساتذة والفقهاء.

واجتمع في الحلة عدد كبير من الطلاب والعلماء، وانتقل معهم النشاط العلمي من بغداد إلى الحلة، واحتفلت هذه البلدة ـ وهي يومئذ من الحواضر الإسلامية الكبرى ـ بما كانت تحتفل به بغداد من وجوه النشاط الفكري كعقد ندوات البحث والجدل، وحلقات الدراسة والمكاتب والمدارس، وغيرها.

واستقرت المدرسة في الحلة وظهر في هذا الدور في الحلة فقهاء كبار كان لهم الأثر الكبير في تطوير مناهج الفقه والأصول الإمامي، وتجديد صياغة عملية الاجتهاد، وتنظيم أبواب الفقه كـ(المحقق الحلي والعلامة الحلي وولده فخر المحققين وابن أبي الفوارس

والشهيد الأول وابن طاووس وابن ورام) وغيرهم من فطاحل الأعلام ورجال الفكر.

ولكي نلمس أثر هذا العصر وفقهائه في تطوير مناهج البحث الفقهي نستعرض بإيجاز تراجم بعض رجال هذه المدرسة:

١. المحقق الحلي:

نجم الدين أبو القاسم جعفر بن سعيد الحلي رائد مدرسة الحلة الفقهية ومن كبار فقهاء الشيعة.

قال عنه تلميذه ابن داود: الإمام العلامة واحد عصره، كان ألسن أهل زمانه، وأقومهم بالحجة وأسرعهم استحضارا[١].

كان مجلسه يزدحم بالعلماء والفضلاء ممن كانوا يقصدونه للاستفادة من حديثه والاستزادة من علمه[٢].

وحضر المحقق الطوسي يوما مجلس درسه من بغداد، فأراد المحقق الحلي أن يتوقف عن التدريس، احتراما لوروده فالتمس منه الطوسي أن يستمر في درسه.

وكان بحث المحقق في القبلة، فجرى الحديث عن مسألة استحباب التياسر في قبلة أهل العراق، فاعترض الطوسي على المحقق بأن الاستحباب لا معنى له، إذ التياسر إن كان من القبلة فحرام، وإن كان إلى القبلة فواجب.

(١) الكنى والألقاب ٣: ١٢٧.

(٢) مجالس المؤمنين ١: ٥٧ مترجم عن الفارسية.

فأجاب المحقق: من القبلة إلى القبلة، فسكت المحقق الطوسي.

فلما رجع إلى بغداد كتب المحقق الحلي له رسالة لطيفة في تحقيق المسألة استحسنها المحقق الطوسي.

وقد أورد الرسالة الشيخ أحمد بن فهد في (المهذب) بتمامها[١].

وقد قدر للمحقق الحلي أن يجدد كثيرا في مناهج البحث الفقهي والأصولي، وأن يكون رائد هذه المدرسة، ويكفي في فضله على المدرسة الفقهية أنه ربى تلميذا بمستوى العلامة الحلي، وأنه خلف كتبا قيمة في الفقه لا يزال الفقهاء يتناولونها ويتعاطونها باعتزاز كـ(شرايع الإسلام) في مجلدين، وكتاب (النافع)، وكتاب (المعتبر) في شرح المختصر، وكتاب (نكت النهاية)، وكتاب (المعارج) في أصول الفقه وغيرها.

توفى سنة ٦٧٦ هجرية، وكان سبب وفاته أنه سقط من أعلى درج في داره فخر ميتا لوقته، فتفجع الناس لموته، واجتمع لتشييعه خلق كثير، ودفن في الحلة، وقبره هناك يزار ويتبرك به، وأخيرا عمر وجدد بناؤه على يد أهل الخير من أهالي الحلة.

٢. العلامة الحلّي:

جمال الدين حسن بن يوسف بن علي بن المطهر، ولد في الحلة سنة ٦٤٨ هـ ونشأ فيها، وتوفى سنة ٧٢٦ هـ.

تتلمذ في الفقه على خاله المحقق الحلي وفي الفلسفة والرياضيات

(١) المهذب البارع ١: ٣١٢ طبع مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

على المحقق الطوسي، فنشأ كما أراد أستاذاه، وظهر على أترابه وزملائه وعرف بالنبوغ وهو بعد لم يتجاوز سن المراهقة، وانتقلت الزعامة في التدريس والفتيا إليه بعد وفاة أستاذه المحقق الحلي.

وقد قدر للعلامة الحلي بفضل ما أوتي من نبوغ، وبفضل أستاذه الكبير المحقق الحلي، وجهوده الخاصة أن يساهم مساهمة فعالة في تطوير مناهج الفقه والأصول، وأن يوسع دراسة الفقه.

وتعتبر موسوعة العلامة الحلي الفقهية الجليلة (التذكرة) أول موسوعة فقهية من نوعها في تاريخ تطوير الفقه الشيعي من حيث السعة والمقارنة والشمول، وتطور مناهج البحث، وطبع أخيرا بأحسن أسلوب مع التصحيح والتعليق عليها.

وبلغت مدرسة الحلة في حياة العلامة بفضل جهوده القيمة، كما قدر له لأول مرة أن يتفرغ لدراسة المسائل الخلافية بين فقهاء الشيعة بصورة مستقلة في كتابه الكبير (المختلف).

٣. فخر المحققين:

أبو طالب محمد بن الحسن بن يوسف بن المطهر من وجوه الطائفة وأعيانها، تلمذ على أبيه العلامة الحلي، ونشأ برعايته وعنايته، وقرأ عليه مختلف العلوم النقلية والعقلية، وبرز في ذلك كله.

أكمل بعض تآليف والده العلامة كـ(الألفين) وغيره، وشرح البعض الآخر كـ(القواعد).

قال فيه الشيخ الحر العاملي﵀: كان فاضلا محققا فقيها ثقة جليلا.

قام بتربية تلامذة كبار في الفقه كان منهم الشهيد الأول﵀.

٤. الشهيد الأول:

أبو عبد الله محمد بن الشيخ جمال الدين مكي بن شمس الدين محمد الدمشقي الجزيني، ولد سنة ٧٣٤، واستشهد سنة ٧٨٦ بدمشق.

ولد في جزين من بلدان جبل عامل، وهاجر إلى الحلة لطلب العلم.

تتلمذ على فخر المحققين بالحلة ولازمه، وتتلمذ على آخرين من تلاميذ العلامة الحلي في الفقه والفلسفة.

زار كثيرا من حواضر العالم الإسلامي في وقته، كمكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد ومصر ودمشق وبيت المقدس ومقام الخليل إبراهيم، واجتمع فيها بمشايخ العامة، وأتاحت له هذه الأسفار نوعا من التلاقح الفكري بين مناهج البحث الفقهي والأصولي عند علماء المسلمين من مختلف المذاهب الفقهية.

وقرأ كثيرا من كتب السنة في الفقه والحديث، وروى عنهم حتى قال في إجازته لابن الخازن: إني أروي عن نحو أربعين شيخا من علمائهم بمكة والمدينة ودار السلام بغداد ومصر ودمشق وبيت المقدس ومقام الخليل إبراهيم.

وهذا النص يدل على أن الشهيد الأول جمع بين ثقافتي الشيعة والسنة في الفقه والحديث، ولاقح بين المنهجين في حدود ما تسمح به طبيعة المنهجين.

خلف كتبا كثيرة تمتاز بروعة البيان ودقة الملاحظة وعمق الفكرة وسعة الأفق، منها (الذكرى) و(الدروس الشرعية في فقه الإمامية) و(غاية المراد في شرح نكت الإرشاد) وكتاب (البيان) و(الباقيات الصالحات) و(اللمعة الدمشقية) و(الألفية) و(النفلية) و(الأربعون حديثا) وكتاب (المزار) و(خلاصة الاعتبار في الفقه والاعتمار) و(القواعد) وغير ذلك.

كانت وفاته بدمشق، حيث قتل فيها بالسيف، ثم صلب، ثم رجم، ثم احرق بفتوى القاضي برهان الدين المالكي وعباد بن جماعة الشافعي بعد ما حبس سنة كاملة في قلعة الشام في محنة أليمة نعرض عنها هنا.

ملامح المدرسة :

يمكننا أن نلخص أهم الملامح التي تميز هذه المدرسة عن مدرسة بغداد فيما يلي:

١ ـ تنظيم أبواب الفقه: قدر للشيخ الطوسي ـ كما وجدناه يتحدث بذلك في مفتتح كتابه الكبير (المبسوط) ـ أن مجمع شتات الأشباه والنظائر في الفقه ويبوب كل ذلك في أبواب خاصة بعدما أكثر الفروع، واستحدث فروعا جديدة.

إلا أننا نلاحظ في كتب الشيخ ـ مع توفر الشيخ على تنظيم الفقه وتبويبه، وجمع النظائر والأشباه من فروعه ـ شيئا من التشويش في تبويت أبواب الفقه وكتبه.

وهذا التشويش لا يختص بكتب الشيخ وحده، وإنما يظهر على كتب المتقدمين عامة.

وفي هذه المدرسة لأول مرة نلتقي بـ (الشرايع) للمحقق الحلي ﵀ في تنظيم رائع لأبواب الفقه استمر عليه فقهاء الشيعة بعد ذلك إلى العصر الحاضر. فقد قسم المحقق الحلي كتابه (شرايع الإسلام) إلى أقسام أربعة:

الأول: العبادات، الثاني: العقود، الثالث: الإيقاعات، الرابع: الأحكام.

وأساس هذا التقسيم الرباعي للفقه عند المحقق هو أن الحكم الشرعي إما أن يتقوم بقصد القربة أم لا، والأول العبادات.

والثاني إما أن يحتاج إلى اللفظ من الجانبين الموجب والقابل أو من جانب واحد أو لا يحتاج إلى اللفظ، فالأول العقود، والثاني الإيقاعات، والثالث الأحكام، وبذلك تندرج أبواب الفقه في أقسام أربعة كما تقدم.

وهذا تقسيم رائع يجمع مختلف أبواب الفقه، وهي من حصيلة هذه المدرسة، وتمت على يد المحقق الحلي بالذات.

٢ ـ وظهرت في هذه الدورة الكتابة الفقهية الموسوعية، فألف العلامة الحلي موسوعته القيمة (تذكرة الفقهاء) في الفقه المقارن وهو عمل فقهي جليل لم يؤلف مثله بعد في الفقه المقارن في السعة والاستيعاب.

ومن يطّلع على كتاب (التذكرة) يلمس فيه بوضوح ضخامة العمل

الفقهي التي قدمها العلامة الحليﷺ للفقه الإسلامي بصورة عامة وبمختلف مذاهبه.

فقد حاول العلامة في كتابه هذا أن يجمع آراء مختلف المذاهب الإسلامية، ويناقش ذلك كله بموضوعية يعز مثله في الدراسات المقارنة الأخرى.

٣ ـ وكثر الاختلاف في هذا العصر بين فقهاء الإمامية أنفسهم نتيجة لابتعادهم عن عصر الإمام، واختلافهم في سلامة الروايات من حيث السند والدلالة. وكان لابد للفقيه نتيجة لتشعب الآراء والمذاهب في استنباط الأحكام، وتذوق المسائل أن يلم بمختلف وجوه الرأي في المسألة حتى يستطيع أن يحكم في المسألة برأيه.

وهذه الحاجة دعت العلماء في هذا العصر إلى أن يجمعوا المسائل المختلف فيها بين علماء الشيعة، ويستعرضوا وجوه الاختلاف عندهم كي يتمكن الفقيه أن يحيط علما بوجوه الاختلاف في المسألة، ويعرف المسألة المتفق عليها بين علماء الإمامية ثانيا.

وممن كتب في هذا الباب العلامة الحليﷺ، حيث جمع المسائل المختلف فيها بين علماء الطائفة في كتابه الكبير الضخم (المختلف) ولا يزال هذا الكتاب موضع دراسة ومراجعة الفقهاء.

٤ ـ في هذه الفترة نلتقي ظاهرة جديدة في تصنيف الحديث هي من نتاج هذه المدرسة، وقد تطورت بعد ذلك وتنامت وأصبحت ذات أثر ودور في عملية الاستنباط.

ونحن فيما يلي نوضح هذه الظاهرة بقدر ما تتسع له صدر هذه

المقدمة.

يعتبر العلامة الحليﷺ، واسطة العقد بين عصرين في تأريخ الفقه الإمامي، ويطلق على الفقهاء السابقين على العلامة الحلي بالمتقدمين واللاحقين له بالمتأخرين.

ولهذه التفرقة بين السابقين على العلامة الحلي واللاحقين له سبب واضح.

فقد ذهبت في هجوم المغول على بغداد جملة واسعة من تراث الإمامية، كما أن الفتن الطائفية التي كان يثيرها العباسيون بين حين وآخر في العراق قضت على جملة أخرى واسعة من تراث الإمامية ومنها إشعال مكتبة الشيخ أبي جعفر الطوسي في بغداد، والذي أدى إلى هجرة الشيخ من بغداد إلى النجف لمواصلة عمله العلمي بعيدا عن ضوضاء الفتن الطائفية في بغداد.

هذه الأحداث وغيرها في عصر الغيبة أدى بالتدريج إلى ضياع جملة كبيرة من القرائن التي كان يعتمدها القدماء من الفقهاء في تمييز الحديث الصحيح عن الضعيف.

وقد كان الفقهاء قبل عصر العلامة الحلي يقسمون الحديث إلى قسمين الصحيح والضعيف.

وكان الصحيح عندهم كل حديث يثقون بصدوره عن أئمة أهل البيتعليهم السلام بالقرائن التي كانت بأيديهم في ذلك الحين والتي اختفت فيما بعد حتى لو كان الراوي غير ثقة في حد نفسه.

يقول الشيخ أبو علي الكربلائي في مقدمات كتابه (منتهى المقال):

صحيح الحديث عند القدماء هو ما وثقوا بكونه من المعصوم أعم من أن يكون الراوي ثقة أو لا لأمارات أخرى يقطعون أو يظنون بها صدوره عنه.

ويقول السيد المرتضى ـ وهو من أجلاء الفقهاء المتقدمين ـ في جواب مسائل التبانيات: إن أكثر أخبارنا المروية في كتبنا معلومة مقطوعة على صحتها إما بالتواتر من طريق الإشاعة والإذاعة أو بإمارة وعلامة دلت على صحتها وصدق رواتها، فهي موجبة للعلم مقتضية للقطع وان وجدناها مودعة للكتب بسند مخصوص[1].

ويرجع الشيخ البهائي العاملي في (مشرق الشمسين) العدول عن طريقة القدماء في اعتماد القرائن في قبول الحديث، ورفضه الأحاديث التي لم تتوفر على صحتها هذه القرائن إلى أربعة أسباب وهي:

١ ـ طول الفترة الزمنية بين المتأخرين من الفقهاء وعصر الأئمة والرواة الأوائل.

٢ ـ ضياع جزء كبير من الأصول الأربعمائة وغيرها في الحديث.

٣ ـ إدخال أحاديث الأصول في الكتب الأربعة من دون تمييز بين المعتبرة وغير المعتبرة مما أدى إلى اشتباه المعتبرة منها بغير المعتبرة والمكررة منها بغير المكررة.

٤ ـ اختفاء قرائن أخرى كانت تساعد الفقيه على تشخيص ما يصح الأخذ بها من الأحاديث عما لا يصح الأخذ بها[2].

(١) الفوائد المدنية للاسترآبادي: ص ٤٩.

(٢) علم الحديث ودراية الحديث للشيخ شانه چي: ص ١٤٢.

ويذكر الفيض الكاشاني رحمه الله في مقدمات (الوافي) ستة من هذه القرائن، كما يذكر الحر العاملي في خاتمة كتاب (هداية الأمة) خمسة من هذه القرائن.

وهناك قرائن أخرى مثل تسالم الأصحاب جيلا بعد جيل على قبول بعض الأخبار والعمل به. مما كان يؤدي إلى الثقة بصدور الخبر من المعصوم وإن كان بعض رجاله ضعافا غير موثوقين[1].

ومهما يكن من أمر فقد اختفت جملة كبيرة من هذه القرائن في هذه الفترة، وأصبح من الضروري التفكير في أسس موضوعية محددة لتشخيص الصحيح من الحديث من الضعيف.

فنهض بهذا الأمر السيد جمال الدين أحمد بن موسى بن طاووس[2] برواية الشيخ البهائي في (مشرق الشمسين) أو العلاّمة الحلي برواية الشيخ حسن صاحب المعالم في (منتقى الجمان)، أو هما معا. وصنفا الحديث إلى أربعة أصناف (الصحيح) و(الحسن) و(الموثق) و(الضعيف).

و(الصحيح) هو الخبر الذي يتصل بالمعصوم بسلسلة من الرواة الثقات الإماميين.

و(الحسن) هو الخبر الذي يتصل بالمعصوم بسلسلة من الرواة

(١) راجع كتاب علم الحديث ودراية الحديث: ص ١٤٧.

(٢) من فقهاء مدرسة الحلة توفى سنة ٦٧٣ هـ له كتاب (البشرى) في الأصول وحل الإشكال في معرفة الرجال وقد هذبه ورتبه الشيخ حسن صاحب المعالم واسماه التحرير الطاووسي وطبع أخيرا طبعه جيده.

الإماميين الممدوحين جميعا من قبل علماء الجرح والتعديل دون التصريح بتوثيقهم جميعا.

و(الموثق) هو الخبر الذي يتصل بالمعصوم بسلسلة من الرواة الذين ورد توثيقهم جميعا في كتب الجرح والتعديل إلا أن بعض رجاله، أو كلهم لم يكونوا من الإمامية.

و(الضعيف) هو الخبر الذي لم يكن فيه أحد الأوصاف الثلاثة أعلاه.

وبموجب هذا التقسيم يصح الأخذ بالصحاح والحسان والموثقات وتترك الأحاديث الضعيفة.

وهذا المقياس مقياس موضوعي ومحدد يعتمد أسسا دقيقة وموضوعة في تميز ما يصح العمل به من الأحاديث عن التي لا يصح العمل بها.

وقد أدى هذا التنسيق فيما بعد إلى خلاف بين مدرستين في الفقه الإمامي هما مدرسة الأصوليين ومدرسة المحدثين الذين رفضوا هذا التقسيم وأصروا على الأخذ بما ورد في الكتب الأربعة من دون أن يناقشوا في سندها.

ومهما يكن من أمر فقد استقر تصنيف الحديث إلى هذه الأقسام الأربعة بعد هذا التاريخ، وأصبح هذا التقسيم أساسا للاستنباط والبحث الفقهي بشكل عام.

وفيما بعد كتب الشيخ حسن مؤلف المعالم نجل الشهيد الثاني رحمهما الله كتاب (منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان)

في هذا الاتجاه. وهذا بعض إنجازات مدرسة الحلة.

ومهما يكن من أمر فقد كانت مدرسة الحلة امتدادا لمدرسة بغداد، وتطويرا لمناهجها وأساليبها، وبالرغم من الفتح الفقهي الكبير الذي قدر لمدرسة بغداد على يد الشيخ الطوسي كانت المدرسة بداية لفتح جديد ومرحلة جديدة في الاستنباط، وقد قدر لمدرسة الحلة فيما بعد أن تعمق مكاسب هذه المدرسة وتطورها.

ولئن كان الشيخ الطوسي بلغ قمة الفكر الفقهي لمدرسة بغداد فقد بلغ العلامة الحلي قمة الفكر الفقهي لمدرسة الحلة.

ولولا جهود علماء هذا العصر لظلت مدرسة بغداد على المستوى التي خلفها الشيخ من ورائه، ولما قطعت هذه المراحل الطويلة التي قطعتها فيما بعد على أيدي علماء كبار أمثال المحقق والعلامة والشهيد وغيرهم.

مدرسة جبل عامل

نبذة عن التاريخ السياسي للتشيع في بلاد الشام:

لبلاد الشام علاقة عريقة وقديمة بالتشيع منذ عهد الأمويين والعباسيين، إلا أن الشيعة في هذين العهدين كانوا يعيشون مرحلة التقية والسرية من الناحية السياسية والدينية بسبب الاضطهاد الطائفي الذي كان يمارسه حكام بني أمية والعباسيين وولاتهم في هذه المنطقة وغيرها من مناطق العالم الإسلامي.

حتى إذا انقضى عصر عهد العباسيين وظهرت للشيعة دول في التاريخ بعد سقوط الدولة العباسية ـ مثل دولة البويهيين في العراق وفارس، ودولة الحمدانيين في الموصل وحلب، ودولة العلويين في مصر والحجاز والشام وإفريقيا ـ بدأ الشيعة يتحركون في بلاد الشام وينشطون ثقافيا وسياسيا.

ولقد عاش شيعة الشام أيام الفاطميين في القرن الرابع فترة حرية واستقرار، نشطت فيها حركة التشيع في بلاد الشام.

وعن هذه الفترة يقول، السيوطي: غلا الرفض وفار بمصر والمشرق والمغرب[(١)].

في هذه الفترة انتعش التشيع وامتد وانتشر في بلاد الشام، ثم تلا هذه الفترة حكم الأيوبيين الذين استلموا الحكم من الفاطميين وحكوا

(١) تاريخ الخلفاء: ص ٤٠٦.

مصر والشام وجددوا اضطهاد الشيعة في بلاد مصر والشام معا، مما أدى إلى ضمور كبير للحالة الشيعية في مصر والشام، ثم جاء من بعدهم المماليك عام ٦٤٨ ليواصلوا نفس السياسة التي مارسها سلفهم الأيوبيون في اضطهاد الشيعة والتضييق عليهم في بلاد الشام، وكانت أيامهم من أشق الفترات على شيعة الشام.

وكان المماليك يتخذون من فتاوى ابن تيمية ذريعة للفتك بالشيعة وإباحة دمائهم، وأدى ذلك إلى أن يحتمي طائفة منهم بالجبال والمناطق الجبلية ليحموا أنفسهم من فتك النظام وبطشه، ويتظاهر طائفة منهم بالانتماء إلى المذاهب السنية ليحمي نفسه وذويه من بطش الحكام.

ونتج عن ذلك ضمور للتشيع في بلاد الشام واختفاء معالمه الفكرية والثقافية. فقد فقدت الطائفة الأولى بالتدريج انتماءها الفكري والعملي للتشيع، ولذلك أسموهم بالشيعة المتخاذلة أو المتستين. وأما الطائفة الثانية فقد شاع فيها الجهل نتيجة البعد والانقطاع عن مراكز العلم.

في مثل هذه الظروف الصعبة في عصر المماليك حاول الشهيد الأول أن يوصل جبل عامل بمدرسة الحلة وينقل إليها العلم والفقاهة والفكر، ويجعل من جبل عامل مدرسة للفقاهة والثقافة الإمامية مستفيدا من موقعها الجغرافي الذي يمنحها حصانة طبيعية في مقابل تعدي المماليك.

وكانت مدرسة (جزين) التي أنشأها الشهيد الأول في جبل عامل بذرة لشجرة طيبة نمت فيما بعد وأثمرت واتسعت واستتبعت مدارس

فقهية أخرى في مناطق كثيرة من جبل عامل.

ورغم أن الشهيد الأول نفسه الذي أنشأ هذه المدرسة ذهب ضحية فتنة طائفية أوجدها المماليك في الشام واستشهد على يد (بيدمر) أحد ولاة المماليك على الشام إلا أن العلم انتشر في جبل عامل، وتعددت مراكز العلم والفقاهة وأصبحت هذه المنطقة مدرسة عامرة بالفقهاء والعلماء، واستعاد التشيع وجهه الفقهي والثقافي وأصالته في بلاد الشام.

ولما امتد بعد ذلك سلطان العثمانيين إلى بلاد الشام وواصل العثمانيون سياسة الاضطهاد والتضييق على شيعة الشام لم يكن هناك ما يهدد كيان الشيعة العقائدي والفقهي في الشام كما حدث ذلك في فتنة المماليك من قبل، فقد استطاع فقهاء الشيعة خلال هذه الفترة أن يعمقوا في بلاد الشام وفي جبل عامل بالخصوص الأسس الفكرية والفقهية للتشيع.

وقد استحدث الشهيد الأول نظاما خاصا لجباية الخمس وتوزيع العلماء في المناطق، وكان لهذا العمل الفكري والثقافي والتنظيمي الذي نهض به الشهيد ومن خلفه من فقهاء الشيعة دور كبير في حفظ التشيع في بلاد الشام.

وفي بداية القرن العاشر (٩٠٥ هـ) أنشأ السلطان إسماعيل الصفوي الدولة الصفوية في إيران، وهي دولة شيعية معروفة في التاريخ. وفي سنة ٩١٤ سيطر السلطان إسماعيل الصفوي على العراق وقضى على دولة (اقاقوينلو) وضم المراقد المقدسة في النجف وكربلاء وبغداد

وسامراء إلى الدولة الصفوية.

وتزامن ظهور وتوسع الدولة الصفوية في إيران والعراق وخراسان وهرات مع سقوط دولة المماليك على يد السلطان سليم العثماني وامتداد نفوذ العثمانيين إلى بلاد الشام سنة ٩٢٣ هـ.

وتحولت الساحة الإسلامية إلى ساحة صراع عنيف بين الدولتين الصفوية والعثمانية، وكانت الحرب بينهما سجالا.

واتخذت الحرب بينهما صفة مذهبية مما كان يزيد في عنف المعارك بين هاتين الدولتين.

ففي سنة ٩٢٠ هـ انتصر العثمانيون على الصفويين في موقعة (چالدران) المعروفة. وبذلك انتقل العراق من النفوذ الصفوي إلى النفوذ العثماني ولم يتمكن الشاه إسماعيل الصفوي أن يسترد العراق حتى وفاته سنة ٩٣٠ هـ واستعاد الصفويون سيطرتهم على العراق سنة ٩٣٧ هـ.

ثم فتح العثمانيون العراق مرة أخرى عام ٩٤١ هـ وهكذا كانت المعارك سجالا بين الصفويين والعثمانيين، وكان من الطبيعي في هذا الصراع أن يتعاطف شيعة وفقهاء جبل عامل مع الصفويين.

وكان الصفويون يستقدمون فقهاء جبل عامل إلى ايران ويولوهم مراكز القضاء والفتيا والتوجيه، وكان هذا كله ينعكس على علاقة شيعة الشام وعلماء جبل عامل بآل عثمان الذين كانوا يحكون بلاد الشام يومئذ.

وقد وجد الشيعة في الشام عموما وفي جبل عامل خصوصا حرية

نسبية في أخريات العصر المملوكي، وأفادوا من ضعف الدولة المملوكية في ممارسة نشاط ثقافي واسع في مدارس جبل عامل.

فلما سقطت الدولة المملوكية على يد آل عثمان واستولى العثمانيون على الشام وقامت الدولة الصفوية في ايران جدد العثمانيون سياسة الاضطهاد ضد الشيعة بشكل عنيف وضيقوا عليهم.

وكان من ابرز أحداث هذا الاضطهاد الطائفي مصرع الشهيد الثاني زين الدين بن علي عام ٩٦٥ هـ بعد ملاحقة طويلة له في دمشق وجبل عامل والحجاز في موسم الحج.

وكان لهذا الإرهاب الذي مارسه العثمانيون ضد فقهاء الشيعة في جبل عامل من جانب وحاجة الدولة الصفوية من جانب آخر إلى الفقهاء والعلماء لإدارة شؤون القضاء والفتيا والتوجيه الديني في النظام الصفوي دور كبير في هجرة علماء جبل عامل من بلاد الشام إلى ايران.

وقد استفادت الدولة الصفوية كثيرا من وجود فقهاء جبل عامل في تنظيم شؤونها كما استفادت في توفير القضاء الشرعي لها، ووجد علماء جبل عامل في ايران مكانا آمنا لهم من الإرهاب الذي كان يمارسه العثمانيون ضد الشيعة في الشام.

وكان هذا العامل المزدوج سببا في انتقال العلم من جبل عامل إلى اصفهان عاصمة الدولة الصفوية.

جبل عامل[١]:

جبل عامل منطقة عريقة في التشيع والولاء لأهل البيتعليهم السلام، وتعود جذور التشيع في هذه المنطقة إلى أيام إبعاد الصحابي الجليل أبي ذررضي الله عنه من المدينة إلى الشام بأمر من الخليفة عثمان بن عفان، وتوجد حتى هذا اليوم مساجد ينسبها الناس إلى هذا الصحابي الجليل.

يقول القاضي نور الله التستري الشهيد الثالثرحمه الله: جبل عامل ولاية من أعمال الشام معمور مشهور مشتمل على قرى وبلاد، تنبو عن الحصر. وبالجملة تجلي أنوار الرحمة الإلهية شامل لأهل جبل عامل ونور المحبة من نواصي أعيانهم ظاهر، ولا يوجد قرية من قراه لم يخرج منها جماعة من الفقهاء والفضلاء الإمامية، وجميع أهله من الخواص والعوام والوضيع والشريف يجدّون في تعليم وتعلم المسائل الاعتقادية والأحكام الفرعية على طبق مذهب الإمامية وفي التقوى والمروءة والقناعة يقتدون بطريقة مولاهم المرضية[٢].

ولجبل عامل علاقة ثقافية وفكرية قديمة وعريقة بالعراق، فقد كان الناس يوفدون أبناءهم لدراسة الفقه إلى بغداد على يد فقهاء العراق.

ولما انتقل الفقه من بغداد إلى الحلة بعد سقوط الدولة العباسية

---

(١) جبل عامل ـ أو عاملة ـ يقع في الجنوب في جبل لبنان في سورية الكبرى ويشتمل على قرى ومدن كثيرة عامرة، ويحده غربا البحر الأبيض المتوسط وشرقا الحوله ووادي اليتم والبقاع وبعض جبل لبنان وجنوبا فلسطين.

(٢) أعيان الشيعة ١: ٢٤٠.

اقبل طلبة جبل عامل إلى الحلة لتلقي العلم من فقهاء الحلة.

ومن هؤلاء الشيخ نجم الدين طمان بن أحمد العاملي، قرأ على السيد فخار الموسوي سنة ٦٣٠هـ بالحلة، وروى عن الشيخ ابن إدريس وغيره من فقهاء الحلة[١]. والشيخ صالح بن مشرف جد الشهيد الثاني، قرأ على العلامة الحلي. وجمال الدين يوسف بن حاتم العاملي، قرأ على المحقق جعفر بن سعيد. وابن الحسام العاملي، أجيز من قبل العلامة الحلي. والشيخ محمد بن جمال الدين مكي العاملي الشهيد الأول، قرأ على فخر المحققين ابن العلامة الحلي، وغيرهم من علماء جبل عامل وفقهائه.

وازدهرت مدرسة جبل عامل وحفلت بالعلماء والفقهاء والمعاهد العلمية، وإليها انتقل تراث مدرسة الحلة، واجتمع فيها جمع غفير من علماء الشيعة حتى أن الحر العاملي رحمه الله يقول: إن علماء الشيعة في جبل عامل يبلغون نحو الخمس من علماء الشيعة في جميع الأقطار مع أن بلادهم أقل من عشر عشر بلاد الشيعة.

وقد تأسست في هذه المنطقة مجموعة من المعاهد والمدارس العلمية، استقطبت طلبة العلم، وأخرجت جمعا كبيرا من الفقهاء والعلماء.

ونحن نشير هنا إلى جملة من هذه المدارس التي اشتهرت في جبل عامل.

(١) أمل الآمل ١: ١٠٣.

مدرسة جزّين :

مدرسة جزّين من أبرز معاهد هذه المنطقة العامرة والحافلة بالفقهاء والعلماء. وقد تأسست وازدهرت هذه المدرسة على يد الشهيد الأول محمد بن جمال الدين مكي العاملي الجزيني رحمه الله... إلا أن جزين كانت قبل الشهيد معروفة بمن فيها من العلماء، ومنهم والد الشهيد جمال الدين مكي بن محمد العاملي الجزيني.

يقول عنه الحُر في (الأمل): كان من فضلاء المشايخ في زمانه ومن أجلاء مشايخ الإجازة[١].

وقال السيد حسن الصدر في التكملة في ترجمته: قال الشهيد في بعض إجازاته: وقد كان والدي جمال الدين أبو محمد مكي رحمه الله من تلامذة المجاز له الشيخ العلامة الفاضل نجم الدين طومان والمترددين إليه في سفره إلى الحجاز الشريف، ووفاته بطيبة في نحو سنة ثمان وعشرين وسبعمائة أو ما قاربها رحمة الله عليهم أجمعين[٢].

وذكره السيد الأمين في الأعيان على النحو الذي ذكر[٣]. ونشطت مدرسة جزين نشاطا ملحوظا بعد عودة الشهيد الأول من الحلة، وكان لهذه المدرسة دور كبير في التاريخ الثقافي والفقهي لجبل عامل[٤].

والشهيد الأول هو مؤسس هذه المدرسة وأبرز فقهائها..

(١) أمل الآمل ١: ١٨٥.
(٢) تكملة أمل الآمل: ص ٤٠٠.
(٣) أعيان الشيعة ١٠: ١٣٤.
(٤) راجع تاريخ جبل عامل: ص ١٣٤.

هاجر من جزين إلى الحلة، وحضر على جمع من علماء الحلة وفقهائها، وكان أبرزهم وأخصهم به هو فخر المحققين ابن العلامة الحلي الذي أعجب بنبوغ هذا الشاب الذي خف لطلب العلم من لبنان إلى العراق، وأكرمه وأولاه الكثير من رعايته واهتمامه، وأعطاه من وقته وجهده الكثير، ويظهر مدى اهتمام واحترام فخر المحققين لتلميذه الشاب من الإجازة التي كتبها له بخطه على ظهر كتاب (القواعد).

يقول﵀: قرأ علي مولانا الإمام العلامة الأعظم أفضل علماء العالم سيد فضلاء بني آدم مولانا شمس الحق والدين محمد بن مكي بن محمد بن حامد أدام الله أيامه من هذا الكتاب مشكلاته، وأجزت له رواية جميع كتب والدي﵀ وجميع ما صنفه أصحابنا المتقدمون رضي الله عنهم عن والدي عنهم بالطرق المذكورة لها.

وأعجب من ذلك هو كلمته المأثورة في الشهيد: لقد استفدت من تلميذي محمد بن مكي أكثر مما استفاد مني.

وما عدا فخر المحققين الذي كان أبرز شيوخ الشهيد﵀، حضر الشهيد في الحلة عند الشيخ ابن معية من كبار تلامذة العلامة الحلي والسيد عبد المطلب بن السيد مجد الدين بن الفوارس. والسيد ضياء الدين عبد الله بن السيد مجد الدين بن الفوارس وهما ابنا أخت العلامة الحلي﵀.

وفي الشام قرأ الشهيد الحكمة والفلسفة الإلهية على الحكيم المتأله قطب الدين الرازي البويهي تلميذ العلامة الحلي وذلك سنة

٧٧٦ هـ قرأ عليه شرح المطالع والمحاكمتين وقد أعجب الشهيد بهذا الحكيم المتأله ولازمه واستفاد منه واستجازه واختص به في الشام.

يقول﵀ في لقائه به: اتفق اجتماعي به في دمشق أخريات شعبان سنة ٧٧٦ هـ فإذا هو بحر لا ينزف، وأجازني جميع ما يجوز عنه روايته[1].

وقرأ الشهيد على عدد من مشايخ السنة كالشيخ إبراهيم بن عمر الملقب ببرهان الدين الجعبري بشيخ مشيخة مقام الخليل بفلسطين، كما قرأ على الشيخ إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد بن سعد الله بن جماعة كما صرح به الشهيد في إجازته لابن الخازن[2].

يقول﵀: وأما مصنفات العامة ومروياتهم فإني أروي عن نحو من أربعين شيخا من علمائهم بمكة والمدينة ودار السلام بغداد ومصر ودمشق وبيت المقدس ومقام الخليل إبراهيم﵇.

فرويت صحيح البخاري عن جماعة كثيرة بسندهم إلى البخاري وكذا صحيح مسلم ومسند ابن داود وجامع الترمذي ومسند أحمد وموطأ مالك ومسند الدار قطني ومسند ابن ماجة والمستدرك على الصحيحين للحاكم أبي عبدالله النيسابوري إلى غير ذلك مما لو ذكر لطال[3].

وقد كان لهذا الانفتاح الثقافي والفقهي أثر واضح في شخصية

(١) الكنى والألقاب ٣: ٦١.

(٢) الإمام الشهيد الأول: ص ٤٦٠.

(٣) بحار الأنوار ١٠٧: ١٩٠ و١٩١.

الشهيد رحمه الله وتآليفه ودروسه التي كان يلقيها على تلاميذه، وفي مدرسة جزين التي وضع أسسها الأولى بنفسه في جبل عامل.

وأكمل الشهيد الشوط الأول من حياته العلمية في العراق والشام بجدية واهتمام، ورجع إلى جزين قريته التي ولد فيها بعلم غزير وطموحات كبيرة وأسس مدرسة جزين، وبدأ فيها بالتدريس.

وكان من جملة تلاميذ هذه المدرسة ـ والذين تخرجوا منها ـ أبناؤه الثلاثة:

(١) الشيخ جمال الدين أبو منصور حسن ابن الشهيد الأول.

(٢) الشيخ ضياء الدين أبو القاسم علي ابن الشهيد.

(٣) الشيخ رضي الدين أبو طالب محمد أكبر أبناء الشهيد. وقد أجازهم والدهم الشهيد، وصورة الإجازة موجودة في البحار.

وازدهرت هذه المدرسة على يد الشهيد رحمه الله وكان الشهيد يمارس التدريس فيها بنفسه ويعطيها من اهتمامه وجهده ووقته الكثير.

كما عمل الشهيد رحمه الله في هذه الفترة بتنظيم علاقة الأمة بالفقهاء من خلال شبكة الوكلاء الذين ينوبون عن الفقهاء في تنظيم شؤون الناس في دينهم ودنياهم كما يقومون بجمع الحقوق المالية الشرعية لتوزيعها على مستحقيها بنظر الفقيه.

والمعروف أن الشهيد الأول رحمه الله هو أول من أسس هذا التنظيم الذي يربط الفقيه المتصدي بالأمة بواسطة شبكة من الوكلاء، واستمر هذا التنظيم فيما بعد ونمى وتطور على أيدي الفقهاء الذين تصدو لشؤون الناس إلى اليوم الحاضر.

وكان الشهيد يتردد خلال فترة عمله قي جزين على دمشق كثيرا، وكان له بيت عامر في دمشق بالعلماء وطلبة العلم. وكان مجلسه حافلا في دمشق بمختلف الطبقات ومن مختلف المذاهب، حتى أن أصحاب السّير يعدّون من كرامات الشهيد، أن أحدا من رواد مجلسه من علماء المذاهب الأربعة لم يطلع على المختصر الذي ألّفه الشهيد في الفقه بإسم (اللمعة الدمشقية) خلال سبعة أيام قضاها في تأليف هذه الرسالة، إجابة لدعوة الأمير علي بن مؤيد حاكم خراسان الذي أرسل إليه وزيره الشيخ محمد الآوي إلى دمشق يستقدمه إلى خراسان ليكون مرجعا للمسلمين هناك، فاعتذر الشهيد بعذر جميل وأرسل إليه هذا المختصر الخالد في الفقه والذي لا يزال موضع دراسة واهتمام الفقهاء وطلاب الفقه.

إذن كان الشهيد يقوم في وقت واحد بجهد علمي في جزين، ونشاط سياسي في دمشق، وعمل اجتماعي واسع في تنظيم المرجعية في بلاد الشام وخراسان.

ونمت وتطورت مدرسة جزين بعد شهادة الشهيد رحمه الله واستقطبت طلبة العلم من مناطق مختلفة، وأصبح جبل عامل بفضل هذه المدرسة وجهود الشهيد مركزا للإشعاع الفكري في بلاد الشام خاصة والعالم الإسلامي عامة.

ومما يذكر في حجم مدرسة جبل عامل الفقهية في هذه المرحلة أن (ست المشايخ) فاطمة بنت الشهيد لما توفيت في قرية جزين حضر تشييعها سبعون مجتهدا من جبل عامل.

مدرسة جبع:

مدرسة جبع من المدارس الفقهية المعروفة في جبل عامل، وفي هذه المدرسة درس الشيخ صالح بن مشرف العاملي الجبعي جد شيخنا الشهيد الثاني.

ويظهر من كتب التراجم أن الشيخ صالح كان قد تلمذ فترة من حياته على العلامة الحلي ثم رجع إلى جبع فكان من فضلاء عصره وفقهائه كما يقول الحر العاملي[1].

كما نشأ في هذه المدرسة ودرس فيها الشيخ نور الدين علي بن أحمد بن محمد العاملي الجبعي والد الشهيد الثاني المعروف بابن الحاجة. وكان فاضلا جليلا كما يقول الحر العاملي[2].

ونشأ فيها شيخنا الجليل الشهيد الثاني (٩١١ ـ ٩٦٦ هـ) وحضر فيها المقدمات على والده الشيخ نور الدين. ثم هاجر بعد وفاة والده جبع إلى (ميس) وحضر فيها على الشيخ الجليل علي بن عبد العال الميسي سنة ٩٢٥ هـ واستمر في الحضور على الشيخ الميسي إلى سنة ٩٣٣ هـ ثم هاجر إلى (كرك نوح) وحضر فيها على السيد حسن ابن السيد جعفر مؤلف كتاب (المحجة البيضاء) وقرأ عليه الفقه والأصول والحديث والكلام والأدب.

ثم عاد إلى جبع في سنة ٩٣٤ هـ وبقي فيها يتعاطى العلم إلى سنة

(١) أمل الآمل: القسم الأول ص ١٠٢.

(٢) أمل الآمل: القسم الأول ص ١١٨.

٩٣٧ هـ حيث هاجر منها إلى دمشق ليكمل دراسته فيها.

وعاد إلى جبع مرة أخرى سنة ٩٣٨ هـ وأقام فيها. إلى سنة ٩٤١ هـ يمارس التدريس والتوجيه والتأليف، وفي هذه السنة غادر جبع إلى دمشق حيث حضر فيها على علماء أهل السنة، فاجتمع بالشيخ شمس الدين بن طولون الدمشقي الحنفي وقرأ عليه جملة من الصحيحين، وأجازه روايتهما معا.

ثم غادر دمشق إلى مصر سنة ٩٤٣ هـ فاجتمع في مصر بجمع من أعلام مصر وفقهائها منهم الشيخ شهاب الدين أحمد الرملي الشافعي، قرأ عليهم واستفاد منهم الملا محمد الاسترآبادي والملا محمد الكيلاني والشيخ شهاب الدين بن أحمد النجار الحنبلي والشيخ أبو الحسن البكري والشيخ زين الدين الجرمي المالكي والشيخ ـ ناصر الدين الملقاني المالكي والشيخ شمس الدين محمد بن أبي النحاس والشيخ عبد الحميد السنهوري وغيرهم ممن يعدهم ابن العودي تلميذ الشهيد الثاني في ترجمته للشهيد.

ثم عاد الشهيد إلى جبع في ٩٣٤ هـ وازدهرت بعودته مدرسة جبع بعد ضمور وخمول.

يقول ابن العودي رحمه الله: وكان قدومه إلى البلاد كرحمة نازلة أو غيوث هاطلة، أحيى بعلومه نفوسا أماتها الجهل، وأزدحم عليه أولوا العلم والفضل، كأن أبواب العلم مقفلة ففتحت وسوقه كانت كاسدة فربحت، وأشرقت أنواره على ظلمة الجهالة، فاستنارت وابتهجت قلوب أهل المعارف وأضاءت، وظهر من فوائده ما لم يطرق الأسماع،

رتب الطلاب ترتيب الرجال وأوضح السبيل لمن طلب[1].

وكذلك نشطت مدرسة جبع بعد عودة الشهيد، واجتمع فيها حوله شباب الطلبة من مختلف بلاد الشام، وبنى فيها مسجدا لا يزال قائما في جبع، ورتب شؤون الطلبة وعين لهم المدرسين للتدريس.

وحضر عند الشهيد خلال هذه الفترة جمع من الأعلام نذكر منهم:

١ ـ الشيخ حسين بن عبد الصمد والد الشيخ البهائي.

٢ ـ السيد علي بن الصائغ العاملي الجزيني الحسني.

٣ ـ السيد نور الدين بن فخر الدين بن عبد الحميد الكركي.

٤ ـ المولى محمود بن محمد علي الجيلاني اللاهيجي.

٥ ـ الشيخ محي الدين أحمد بن تاج الدين الميسي العاملي.

٦ ـ الشيخ بهاء الدين محمد بن علي بن الحسن العودي الجزيني، الذي كان من خواص تلاميذ الشهيد، وكتب كتابا قيما في ترجمة الشهيد أسماه (بغية المريد في الكشف عن أحوال الشهيد).

ومن أعلام جبع، المحقق جمال الدين أبو منصور الشيخ حسن بن زين الدين الشهيد الثاني (٩٥٩ ـ ١٠١١هـ)، من كبار فقهاء الشيعة. اشتهر بكتابه القيم (معالم الدين وملاذ المجتهدين).

كان عمره عند استشهاد والده الشهيد أربع سنين. حضر عند السيد علي الصائغ والسيد علي نور الدين الكبير ـ والد السيد محمد صاحب (المدارك) ـ والشيخ حسين بن عبد الصمد ـ والد الشيخ البهائي ـ

---

(١) رسالة ابن العودي في ترجمة الشهيد الثاني.

واختص بالسيد علي الصائغ وكان أكثر دراسته في العلوم العقلية والنقلية عليه.

واستفاد من إقامة الشيخ عبد الله اليزدي رحمه الله صاحب (حاشية التهذيب) في هذه المنطقة فقرأ عليه هو والسيد محمد صاحب (المدارك).

ثم هاجر هو وصاحب (المدارك) إلى النجف وحضرا عند المولى المقدس الأردبيلي في الفقه والأصول، ثم رجعا إلى جبع.

واستقل صاحب (المعالم) الشيخ حسن بعد عودته إلى جبع في التدريس، وألف مجموعة من الكتب.

وتمتاز تأليفاته بالتحرير والتركيز، ومن أهم ما كتب خلال هذه (منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان) في مجلدين في الحديث و(معالم الدين وملاذ المجتهدين) في الأصول و(حاشية على مختلف الشيعة) للعلامة الحلي في الفقه، و(مشكاة القول السديد في الاجتهاد والتقليد)، وكتاب (الإجازات) و(التحرير الطاووسي) في الرجال، و(رسالة الاثنا عشرية) في الطهارة والصلاة، وله ديوان شعر وله فيه شعر جيد.

زامل السيد محمد صاحب (المدارك) ابن أخته منذ الصبا ودرسا معا على والد السيد محمد ـ السيد علي نور الدين الكبير ـ والمولى الشيخ عبد الله اليزدي، ثم رحلا معا إلى النجف، ورجعا إلى جبع، وكانت بينهما ألفة ومودة، وكان كل واحد منهما إذا كتب شيئا أرسل ما كتبه إلى الآخر لينظر فيه، ويبدي ملاحظاته عليه، وكانا يصليان معا

في مسجد من مساجد جبع فأيهما بلغ المسجد بعد صاحبه كان يأتم به...

وتوفي صاحب (المدارك) قبل صاحب (المعالم) بمدة قصيرة (بقدر ما بينهما من تفاوت في العمر) وكانا متقاربين في السن، ففجع صاحب (المعالم) بوفاة ابن أخته رفيق العمر وزميل الدراسة والتحصيل، وكتب على قبره ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾[1].

وكتَبَ على قبره أبياتا هي:

لهفي لرهن ضريح صار كالعلم
للجود والمجد والمعروف والكرم

قد كان للدين شمسا يستضاء به
(محمد) ذو المزايا طاهر الشيم

سقى ثراه وهناه الكرامة والر
يحان والروح طرا بارئ النسم

مدرسة كرك نوح:

كرك نوح مدينة صغيرة جنوب جبل لبنان وفيها قبر ينسب إلى نبي الله نوح عليه السلام، وهذه المدينة ليست من جبل عامل إلا أنها قريبة منها، وتغلب على علمائها النسبة إلى جبل عامل.

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

وفي هذه القرية مدرسة فقهية من أكثر المدارس الفقهية خصوبة وعراقة في جبل عامل ولبنان. نشأ فيها وتخرج منها في القرن العاشر الهجري والقرن الحادي عشر جمع غفير من الفقهاء والعلماء. ومن هذه القرية الصغيرة كان الفقهاء ينطلقون إلى ايران في العهد الصفوي ليشاركوا في نشر مذهب أهل البيت وترسيخه في ايران وتثقيف المسلمين فيها.

معالم مدرسة جبل عامل وأهم انجازاتها الفقهية:

فيما يلي نحاول أن نبرز أهم الانجازات والمكاسب الفقهية التي حققها فقهاء هذه المدرسة وهي على أربعة محاور: (الحديث) و(الأصول) و(الفقه) و(القواعد الفقهية) وبالصورة التالية:

١ ـ تنقيح أحاديث الكتب، الأربعة.

٢ ـ تنقيح وتنظيم المباحث الأصولية.

٣ ـ تدوين الفقه.

٤ ـ تدوين القواعد الفقهية.

وسوف نرى أن هذه المدرسة حققت إنجازات كبيرة وعلى درجة عالية من التطور على هذه المحاور الأربعة.

أما على المحور الأول: فقد تم تنقيح كتب الحديث الأربعة الشهيرة، وأفرزت الصحاح والحسان منها عن الموثقات والضعاف، وقد نهض بهذا المشروع أبو منصور جمال الدين الشيخ حسن ـ المعروف لدى الفقهاء بـ(صاحب المعالم) نجل الشهيد الثاني رحمهما

الله ـ في كتابه الجليل القيم (منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان).

وهذا الكتاب يعتبر التطبيق العملي للنظرية التي تم وضعها في مدرسة الحلة على يد السيد ابن طاووس والعلامة الحلي في التقسيم الرباعي للحديث إلى الصحيح والحسن والموثق والضعيف.

وقد دخلت هذه النظرية مرحلة التنفيذ أولا على يد العلامة الحلي رحمه الله في كتابه (الدر والمرجان في الأحاديث الصحاح والحسان) الذي دونه العلامة في عشرة أجزاء[1]، إلا أننا لا نعرف لهذا الكتاب نسخة في المكتبات. كما أن للعلامة كتابا آخر في نفس الموضوع باسم (النهج الوضاح في الأحاديث الصحاح)[2].

وأول كتاب نعرفه في انتقاء الأحاديث الصحيحة والحسان من الكتب الأربعة هو (منتقى الجمان) للشيخ حسن.

وفي مقدمة هذا الكتاب يقرر المؤلف أن القدماء رحمهم الله كانوا قد تسامحوا كثيرا في قبول الروايات وتوسعوا فيها وأخذوها من غير الثقات اعتمادا على القرائن التي كانت تدل على صحة الحديث وصدوره عن المعصوم. أما في العصور المتأخرة فقد ضاع أكثر هذه القرائن ولا يمكن اعتمادها في قبول الروايات.

يقول رحمه الله في مقدمة (منتقى الجمان): وقال المرتضى رضي الله عنه في جواب المسائل التبانيات المتعلقة بأخبار الآحاد: (إن أكثر الأخبار

(١) الذريعة٨: ٨٧ تحت رقم ٣١٢ الطبعة الثانية.

(٢) الذريعة ٢٤: ٤٢٧ تحت رقم ٢٢٢٩.

المروية في كتبنا معلومة مقطوع على صحتها، إما بالتواتر من طريق الإشاعة والإذاعة أو بأمارة وعلامة دلت على صحتها وصدق رواتها، فهي موجبة للعلم مقتضية للقطع وإن وجدناها مودعة في الكتب بسند مخصوص معين من طريق الآحاد).

وغير خاف أنه لم يبق لنا سبيل إلى الاطلاع على الجهات التي عرفوا منها ما ذكروا حيث حظوا بالعين، وأصبح حظنا الأثر، وفازوا بالعيان وعوضنا عنه بالخبر، فلا جرم إنسد عنا باب الاعتماد على ما كانت لهم أبوابه مشرعة، وضاقت علينا مذاهب كانت المسالك لهم فيها متسعة، ولو لم يكن إلا انقطاع طريق الرواية عنا من غير جهة الإجازة التي هي أدنى مراتبها لكفى به سببا لإباء الدراية عل طالبها[1].

وأما على المحور الثاني في (أصول الفقه): فقد ألف أيضا الشيخ حسن نجل الشهيد الثاني، كتاب (معالم الدين وملاذ المجتهدين) وهو من أفضل ما كتب في الأصول. ويمتاز هذا الكتاب بتحرير المسائل الأصولية وتنظيمها وتبويبها ضمن مقدمات ومطالب.

وفي هذا الكتاب يبحث المؤلف عن دلالة الألفاظ ثم عن الأوامر والنواهي (الأحكام) بصورة مستوفاة، ويبحث فيه عن حجية الخبر والإجماع، كما يبحث عن الاستصحاب.

ولولا أن المنهج الذي يلتزمه مؤلف (المعالم) في تنظيم المباحث الأصولية لا يفرق بين الأصول من جانب والطرق من جانب آخر أو ما

(١) منتقى الجمان: ص ٢ و٣ طبع مؤسسة النشر الإسلامي.

يسميه علماء الأصول المتأخرون عادة بـ(الأدلة الفقاهتية والأدلة الاجتهادية) لكان هذا الكتاب يوازي في منهجيته المناهج الأصولية الحديثة.

وقد حظي هذا الكتاب نظرا لاختصاره وتركيزه واحتوائه على أمهات المسائل الأصولية بشروح وتعليقات كثيرة من أهمها الشرح القيم للعالم المحقق الشيخ محمد تقي الاصفهاني المعروف بـ(هداية المسترشدين).

ويروى عن الشيخ الأنصاري أنه اكتفى بهذا الشرح من كتابه مباحث الألفاظ في الأصول، واقتصر في كتابه (الفرائد) على المباحث العقلية فقط مباحث القطع والظن والشك.

وقد حظي هذا الكتاب ـ المعالم ـ في الحوزات العلمية باهتمام الأساتذة والطلبة، ويعتبر الكتاب ـ الذي يبدأ به الطالب دراسته في الأصول ولازال ـ موضع إهتمام وعناية كبيرة في الحوزات العلمية.

وعلى المحور الثالث (البحث الفقهي): لدينا عملان فقهيان جليلان لهذه المدرسة:

أحدهما (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية). والمتن للشهيد الأول محمد بن جمال الدين مكي العاملي (٧٣٤ ـ ٧٨٦ هـ) والشرح للشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي (٩١١ ـ ٩٦٥ هـ).

وهذا الكتاب مختصر جليل في الفقه يتميز بمتانة الاستدلال وتركيز الدليل وتجنب الخوض في المناقشات المطولة للآراء وروعة البيان وجمال التعبير. وكل ذلك كان سببا ليدخل هذا الكتاب في

المنهاج الدراسي للحوزات العلمية في الفقه إلى اليوم الحاضر، وهو أول كتاب دراسي استدلالي يقرأه الطالب في الفقه، ويتذوق من خلاله الاستدلال الفقهي بصورة متيسرة ومبسطة.

ونلاحظ في هذا الكتاب وسيما في المجلد الثاني منه في أبحاث المعاملات استخداما واسعا للقواعد الفقهية، ما لا نجد نظيرا له في الأعمال الفقهية السابقة عليه من نحو كتب العلامة والمحقق الحلي والشيخ الطوسي رحمهم الله تعالى.

والعمل الفقهي الآخر الذي أنجز في هذه المرحلة هو كتاب (مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام) للفقيه المحقق السيد محمد بن علي الموسوي العاملي (١٠٠٩ هـ) وهو شرح تعليقي على شرائع الإسلام، في مقابل الشرح المزجي للشهيد الثاني لكتاب الشرائع (المسالك).

وهذا الكتاب يبتني على تدقيق الروايات من حيث السند ورفض الضعاف والموثقات منها والعمل بالصحاح والحسان على مذهبه في قبول الحديث ورفضه.

فيرد الخبر إذا كان ضعيفا عندما يكون هو المستند الوحيد للحكم الإلزامي ويقبله إذا كان مدعوما بشهرة فتوائية من قبل الفقهاء وهذا المسلك يتبناه السيد محمد العاملي في (المدارك) وخاله الشيخ حسن صاحب (المعالم) في كتاب (منتقى الجمان) وهو موضع نقد المحدثين رحمهم الله.

يقول المحقق الفقيه الشيخ يوسف البحراني ﵀ عنهما وعن هذا

المنهج في رواية الحديث في لؤلوة البحرين: إلا أنه (أي الشيخ حسن) مع السيد محمد قد سلكا في الأخبار مسلكا وعرا ونهجا عسرا.

أما السيد محمد فانه رد أكثر الأحاديث من الموثقات والضعاف باصطلاحه، وله فيه اضطراب كما لا يخفى على من راجع كتابه فيما بين أن يردها تارة وما بين أن يستدل بها أخرى...

وأما خاله الشيخ حسن فإن تصانيفه على غاية من التحقيق والتدقيق، إلا أنه بما اصطلح عليه في كتاب المنتقى ـ من عدم صحة الحديث عنده، إلا ما يرويه العدل الإمامي المنصوص عليه بالتوثيق بشهادة ثقتين عدلين فرمز له بـ(صحي) وللصحيح عند الأصحاب بـ(صحر) ـ قد بلغ في الضيق إلى مبلغ سحيق، وأنت خبير بأنا في عويل من أصل هذا الاصطلاح الذي هو إلى الفساد أقرب من الصلاح، حيث أن اللازم منه ـ لو وقف عليه أصحابه ـ فساد الشريعة، وربما انجر إلى البدع الفظيعة، فإنه متى كان الضعيف باصطلاحهم مع إضافة الموثق إليه ـ كما جرى عليه في المدارك ـ ليس بدليل شرعي بل هو كذب وبهتان، مع أن ما عداهما من الصحيح والحسن لا يفيان لهما إلا بالقليل من الأحكام فإلى مَ يرجعون في باقي الأحكام الشرعية ولاسيما أصولها وفضائل الأئمة وعصمتهم وبيان فضائلهم وكراماتهم ونحو ذلك، وإذا نظرت إلى أصول الكافي وأمثاله وجدت جله وأكثره إنما هو من هذا القسم الذي أطرحوه، ولهذا ترى جملة منهم لضيق الخناق خرجوا من اصطلاحهم في مواضع عديدة، وتستروا بأعذار غير سديدة، وإذا كان الحال هذه في أصل الاصطلاح فكيف

الحال في اصطلاح صاحب المنتقى وتخصيصه الصحيح بما ذكره، ما هذه إلا غفلة ظاهرة.

والواجب إما الأخذ بهذه الأخبار ـ كما هو عليه متقدمو علمائنا الأبرار ـ أو تحصيل دين غير هذا الدين وشريعة أخرى غير هذه الشريعة لنقصانها وعدم تمامها لعدم الدليل على جملة من أحكامها. ولا أراهم يلتزمون شيئا من الأمرين مع أنه لا ثالث لهما في البين، وهذا بحمد الله ظاهر لكل ناظر غير متعسف ولا مكابر[١].

المحور الرابع ـ للانجازات الفقهية في هذه المدرسة ـ (تدوين القواعد الفقهية) وهو أمر جديد في تاريخ الفقه الإمامي.

والقواعد الفقهية أحكام كلية تندرج تحت كل منها تطبيقات جزئية من أبواب مختلفة من الفقه أو من باب واحد من أبوابه، وهي كثيرة في أبواب المعاملات والعقود والنكاح والمواريث والعبادات والجنايات وغيرها.

وتعتبر هذه القواعد من أهم مصادر الاجتهاد ومساحة خصبة من مساحات الفقه، يستطيع الفقيه أن يفيد من تطبيقاتها فائدة واسعة في مختلف أبواب الفقه، ويستخرج منها أحكاما لفروع فقهية جديدة.

ولابد للفقيه من استخدام الأصول والقواعد معا إلا أن ولادة الأصول ونشوءه في الفقه الإمامي كان قبل ولادة القواعد.

وفي مدرسة جبل عامل تم تدوين القواعد الفقهية لأول مرة في

---

(١) لؤلوة البحرين: ص ٤٥ ـ ٤٧.

تاريخ فقه أهل البيت، وكان الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي رحمه الله (المتوفى في ٧٨٦ هـ) هو أول فقيه إمامي ينهض بهذا المشروع الفقهي بصورة منهجية وذلك في كتابه القيم الجليل (القواعد والفوائد).

يقول الشهيد عن كتابه هذا في إجازته لابن الخازن أنه لم يعمل الأصحاب مثله.

وهذا الكتاب يحتوي على ما يقرب من ثلاثمائة وثلاثين قاعدة، وما يقرب من مائة فائدة، ويبحث الشهيد هذه القواعد في كثير من الأحيان بصورة مقارنة بين المذاهب المختلفة، يستعرض فيها الآراء ويخضعها لمناقشة علمية دقيقة. ونظرا لتداخل القواعد والفوائد في هذا الكتاب وعدم انتظامها بنظام معين قام تلميذه المقداد السيوري الحلي بنظم وتهذيب هذا الكتاب وأسماه بـ(نضد القواعد الفقهية).

هذه هي ـ على نحو الإجمال والتركيز ـ أهم المكاسب الفقهية في هذه المدرسة، وهي مكاسب جليلة وذات قيمة علمية كبيرة، وهي تستحق دراسة تفصيلية أكثر من هذا الإجمال.

مدرسة اصفهان

نبذة عن التاريخ السياسي والعلمي لمدرسة اصفهان:

ذكرنا من قبل أن مدرسة جبل عامل انتقلت إلى اصفهان في أيام الصفويين وكان السبب في ذلك هو اضطهاد العثمانيين لفقهاء الشيعة في الشام، وحاجة الصفويين إلى وجود الفقهاء لتولي شؤون القضاء والفتيا والتوجيه، وتكريس علاقة الدولة بفقه أهل البيت عليهم السلام من الناحية الفقهية والثقافية وتغطية الجانب الشرعي للدولة في صراعها مع العثمانيين الدولة السنية المعروفة.

والصفويون أسرة شيعية علوية عريقة تنتسب إلى صفي الدين الأردبيلي العارف والصوفي المعروف المدفون بأردبيل في آذربايجان، وكان رجال هذه الأسرة يتوارثون زعامة الطريقة الصوفية. فلما تولى (إسماعيل) أحد أحفاد صفي الدين زعامة الطريقة بعد مقتل والده جمع جيشا من أتباعه وقاده إلى قتال أسرة آقاقوينلو الحاكمة في آذربايجان والعراق، وقضى على نفوذ هذه الأسرة التركمانية في آذربايجان واتخذ من تبريز مقرا لحكمه وسلطانه عام ٩٠٥ هـ ثم توجه بجيشه إلى العراق وفتحه وقضى على نفوذ أسرة آقاقوينلو في العراق بشكل كامل، وأصبح الشاه إسماعيل حاكما على ايران والعراق بشكل كامل.

وامتدت فتوحات الشاه إسماعيل إلى خراسان، وتم له فتحها، كما تم له فتح (هرات) وإسقاط حكومة (ازبك) بعد حرب طويلة أخذت

فيها الصبغة المذهبية، وحاول كل من الطرفين المتقاتلين أن يستفيد من انتمائه المذهبي في كسب المعركة لصالحه.

وهكذا تكونت دولة شيعية قوية وواسعة في ايران والعراق وخراسان وهرات إلى جنب دولة سنية قوية وواسعة كذلك، وهي الدولة العثمانية التي كانت تتخذ من الخلافة الإسلامية غطاء شرعيا لوجودها السياسي في العالم الإسلامي، واستمر القتال سجالا بين هاتين القوتين على مناطق النفوذ، فبادرت الدولة الصفوية إلى فتح العراق وإسقاط حكومة ازبك السنية عام ٩١٤ هـ.

ثم تقابلت الدولتان في معركة كبيرة في حياة الشاه إسماعيل وانتهت المعركة بانتصار آل عثمان على الصفويين في موقعة (چالدران) الشهيرة وانفصل العراق عن محور النفوذ الصفوي، وأعلن والي العراق عن انضمام العراق إلى الدولة العثمانية.

ثم استعاد الصفويون سيطرتهم على العراق من جديد عام ٩٣٧ هـ بعد وفاة الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية. ثم استرجع آل عثمان سيطرتهم على العراق من جديد عام ٩٤١هـ.

وخلال هذا الصراع كان كل من الطرفين المتنافسين والمتقاتلين يحاول أن يكسب لموقفه في هذه المعركة الضارية غطاء شرعيا يمكنه من تحشيد المقاتلين إلى جانبه.

أما آل عثمان فكان عنوان الخلافة الإسلامية يدعمهم في هذه المعركة إلى حد بعيد، بالإضافة إلى الارتباط التاريخي للمؤسسة الفقهية السنية بالمؤسسة السياسية.

أما الدولة الصفوية فكانوا يواجهون مشاكل حقيقية في هذا الجانب وكان عليهم أن يعملوا لكسب موقف فقهاء الشيعة إلى جانبهم وتأييدهم لهم.

على أن هذه الدولة الفتية كانت بحاجة إلى حضور فاعل لفقهاء الشيعة معها لتستطيع أن تؤدي رسالتها في تكريس مذهب أهل البيت عليهم السلام وفقهم وإدارة شؤون الدولة على منهاج أهل البيت الفقهي، وقد كان بعض ملوك الصفويين كالشاه إسماعيل وابنه طهماسب صادقين في محاولة تكريس المذهب الفقهي لأهل البيت في الدولة الصفوية وتمشية نظام الحكم الصفوي على منهاج فقه أهل البيت، وكانوا يحاولون الإفادة من فقهاء الشيعة في هذا المجال وتمكينهم من الدولة بالمقدار الذي لا يزاحمهم في حق اتخاذ القرار السياسي بشؤون الدولة.

وكان هذا هو أحد العاملين الرئيسيين لقدوم فقهاء الشيعة من جبل عامل من بلاد الشام إلى ايران، وقد اشرنا إلى ذلك من قبل، فقد كانت الدولة الشيعية الفتية بحاجة حقيقية وماسة إلى استقدام الفقهاء من جبل عامل لما تتمتع به هذه المنطقة الجبلية من الشام من مدارس علمية وتراث فقهي وثروة علمية كبيرة.

والعامل الثاني لهجرة فقهاء جبل عامل إلى ايران هو الاضطهاد الطائفي الذي كان يمارسه حكام آل عثمان ضد الشيعة عموما وضد فقهاء الشيعة على الخصوص. فقد سقطت الشام بيد آل عثمان عام ٩٢٣ هـ وقضى العثمانيون على نفوذ المماليك قضاء تاما، واستمرت

بلاد الشام تحت النفوذ العثماني حتى سقوط الدولة العثمانية.

ورغم الاضطهاد الطائفي الذي كان يمارسه المماليك ضد فقهاء الشيعة في الشام، فقد كان فقهاء الشيعة يتمتعون بحرية نسبية في منطقة جبل عامل في ممارسة نشاطهم الثقافي والديني عندما كان هذا النشاط لا يضر بمصالح الدولة.

فلما حل آل عثمان محل المماليك سلبوا من فقهاء الشيعة حتى هذه المساحة المحدودة من حق النشاط العلمي، وضيقوا عليهم سبل العمل والحركة من كل جانب.

فقد قام السلطان سليم الأول بأوسع مذبحة للشيعة في بلاد الأناضول والشريط الساحلي للبحر الأبيض المتوسط، ويقدر المؤرخون قتلى الشيعة في هذه المذبحة سبعين ألفا.

وقتل عمال آل عثمان الفقيه زين الدين العاملي (الشهيد الثاني ﵀) رغم المرونة المذهبية التي كان يمارسها هذا الفقيه الجليل، فقد كان على صلة وثيقة بالمراكز العلمية السنية، وكسب تأييد الآستانة في أن يتولي المدرسة العلمية النورية في بعلبك، ولم يستجب لدعوة الصفويين في الهجرة إلى ايران، رغم ذلك كله لم يسلم هذا الفقيه الجليل من سيف الاضطهاد الطائفي، وقُتل على ساحل البحر بطريقة مشجية.

وبسبب هذين العاملين استجاب فقهاء جبل عامل إلى دعوة الصفويين للقدوم إلى ايران، فقدم من جبل عامل إلى اصفهان جمع كبير من خيار وكبار فقهاء جبل عامل.

المحقق الكركي:

وكان المحقق الكركي الشيخ نور الدين علي بن الحسين بن عبد العالي الشهير بـ(المحقق الثاني)هو أول فقيه من جبل عامل يستجيب لدعوة الصفويين.

التقى المحقق الكركي بالشاه إسماعيل الصفوي في (هرات) عندما فتح الملك الصفوي هرات في قمة مجده العسكري وانتصاراته وبارك له هذا النصر واستقبل الملك المنتصر المحقق الثاني في نشوة فتوحاته العسكرية باحترام وتقدير كبيرين، وطلب منه أن ينتقل معه إلى ايران ويتولى شؤون الدولة الشرعية والفقهية بموجب مذهب أهل البيت.

وفى بداية هذا اللقاء لم يخف المحقق الكركي استياءه من بطش الصفويين بالسنة في مدينة هرات بعد فتحها والقضاء على دولة الازبك، وقد بلغه أن الجيش الصفوي قد قتل شيخ الإسلام في هرات سعد الدين التفتازاني صاحب كتاب (المطول في البلاغة) فقال للملك ـ وهو يريد أن ينبهه إلى خطئه في الاضطهاد الطائفي والفتك بمن يخالفهم في المذهب ـ لو لم يقتل لامكن أن يتم عليه بالحجج والبراهين حقيقة مذهب الإمامية ويذعن بإلزامه جميع بلاد ما وراء النهر وخراسان[1].

انتقل المحقق الكركي إلى ايران بصحبة الشاه واستغل هذه

(١) مستدرك وسائل الشيعة٣: ٤٣٢.

الفرصة أفضل استغلال، ونشط في تكريس ونشر فقه أهل البيت عليهم السلام في ايران، وتولى تعيين العلماء وأئمة الجماعة والقضاة في أطراف البلاد بصورة منظمة.

وإذا صح أن الشهيد الأول محمد بن مكي رحمه الله كان أول من مارس تنظيم ارتباط العلماء بالمرجعية وجباية الحقوق الشرعية بصورة منظمة، فقد كان المحقق الكركي أول من مارس هذه النظرية في النظم بصورة ميدانية وواسعة في الدولة الصفوية، مستفيدا من إمكانات النظام والدعم السياسي والمالي الذي كان يتلقاه من قبل الدولة.

وقد استطاع المحقق الكركي أن يقنع جمعا من زملائه وأصدقائه وتلاميذه في جبل عامل للهجرة إلى ايران والإفادة من هذه الفرصة السانحة لنشر وتكريس فقه أهل البيت عليهم السلام وبسط نفوذ الفقهاء في هذه الدولة الفتية.

ويبدو أن المحقق الكركي استطاع أن يحقق خلال هذه الفترة أهدافه بصورة جيدة، ونجح في بسط نفوذ المؤسسة الفقهية إلى حد بعيد، مما جعل البلاط الملكي يتضايق منه بصورة أو بأخرى، وقد أدى ذلك فعلا إلى برود ملحوظ في علاقة المحقق الكركي ببعض أجنحة البلاط، فآثر المحقق أن يغادر ايران إلى العراق، ويعود إلى النجف مرة أخرى ليعاود نشاطه الفقهي في هذه المدينة المقدسة بجوار مرقد أميرالمؤمنين عليه السلام.

وقد مكث المحقق لقرابة ست سنوات في النجف توفي خلالها

الشاه إسماعيل وخلف على الملك ابنه طهماسب.

ويبدو أن الفراغ الذي خلفه المحقق الكركي من بعده أضر بالدولة، وأن الجمهور كان يطالب بإلحاح بعودة المحقق الكركي إلى ايران، ولم يجد الشاه بديلا عن المحقق مما جعل طهماسب ابن الشاه إسماعيل يطلب من المحقق العودة إلى ايران لتسلم منصب شيخ الإسلام في عاصمة ملكه (اصفهان). فاستجاب المحقق الكركي لدعوة الملك ورجع إلى اصفهان عاصمة الصفويين بصفة (نائب الإمام). وهذه الصفة تمنحه بطبيعة الحال الولاية المطلقة في شؤون النظام والأمة وتجعل مشروعية النظام تابعة لإذن الفقيه. وأقر النظام الصفوي للمحقق بهذه الولاية المطلقة النائبة عن ولاية الإمام، وصرح له الملك (بأن معزول الشيخ لا يستخدم ومنصوبه لا يُعزل)[1].

وكان طهماسب يقول للمحقق الكركي: أنت أولى بهذا الأمر مني. أنت نائب الإمام وأنا احد عمالك الذين يمثلون أوامرك ونواهيك[2].

ومارس المحقق عمله من هذا الموقع الشرعي في فترة من حكومة الشاه طهماسب وكان ينصب الولاة ويعزلهم ويأمرهم بالعدل والإحسان.

يقول السيد نعمة الله الجزائري: رأيت مجموعة من أحكام المحقق إلى الحكام والولاة، وكانت جميعا تتضمن الأمر بالعدل إلى الرعايا والإحسان إليهم، وكان للمحقق الكركي دور كبير في مكافحة

(١) لؤلؤ البحرين: ص ٢٧٢.

(٢) مفاخر الإسلام للشيخ علي دواني ٤: ٤٤١.

الفحشاء والمنكرات وإقامة الفرائض في مواقيتها والأمر بإعلان الأذان في مواقيت الصلاة، وملاحقة المجرمين والمفسدين في ايران[1].

ولاشك أن هذا حدث جديد في تاريخ فقه أهل البيت، ولأول مرة في التاريخ يتصدى فقيه إمامي لشوون الولاية العامة من موقع السيادة والولاية الشرعية نيابة عن الإمام. وهذا الأمر إن كان معروفا من الناحية النظرية في الفقه الشيعي فهو على الصعيد التنفيذي والتطبيقي حدث جديد بالمعنى الدقيق للكلمة.

التراث الفقهي للمحقق الثاني:

أول ما تلقى المحقق الكركي العلم في جبل عامل، ثم هاجر إلى دمشق والقدس ومصر وتلقى فيها العلم من فقهاء المذاهب الأربعة ومن أشهر أساتذته الذين تلقى العلم منهم في جبل عامل: الشيخ شمس محمد بن خاتون العاملي، وأحمد بن الحاج علي العاملي العينائي، وزين الدين جعفر العاملي، والشيخ شمس الدين محمد بن داود ابن المؤذن الجزني، والشيخ علي بن هلال الجزائري، والسيد حيدر العاملي.

وكان هذا الأخير من أكثر من أخذ عنه المحقق في جبل عامل. يقول عنه في بعض إجازاته: لازمته دهرا طويلا وأزمنة كثيرة وأنه أجل أشياخي وأشهرهم[2].

---

(١) أحسن التواريخ: حوادث سنة ٩٣١. نقلا عن السيد الجزائري رحمه الله.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة٣: ٤٣٤.

أتحف المحقق الكركي المكتبة الفقهية الإمامية بمجموعة قيمة من الكتب الفقهية من أهمها موسوعة (جامع المقاصد) وهو فقه استدلالي في شرح قواعد العلامة الحلي، كتبه المحقق إلى كتاب النكاح، وهو من أهم ما خلفه المحقق الكركي من الكتب الفقهية. ويمتاز (جامع المقاصد) بالتركيز والإيجاز ومتانة الاستدلال وسلامة وجمال البيان وتجنب الدخول في التفاصيل والاقتصار على مقدار الضرورة من النقض والاستدلال.

وهذا الكتاب منذ أن ألفه المحقق الكركي إلى اليوم كان موضع اهتمام الفقهاء يستندون إليه ويأخذون عنه ويكثر ذكره في الكتب الفقهية.

ويُحكى عن الشيخ محمد حسن النجفي صاحب (جواهر الكلام) أن الفقيه إذا كان بين يديه (جامع المقاصد) و(وسائل الشيعة) و(الجواهر) استغنى عن أي مصدر آخر، وكان بإمكانه ـ استنباط الحكم الفقهي اعتمادا على هذه المصادر الثلاثة.

وله أيضا شرح الإرشاد للعلامة، وشرح اللمعة الدمشقية للشهيد الأول، وصيغ العقود، ورسالة في الوجوب التخييري أو التعييني لصلاة الجمعة، ورسالة في أقسام الارضين، ورسالة في السجود على التربة الحسينية، ورسالة في أحكام السلام والتحية، وشرح ألفية الشهيد الأول، ورسالة في العدالة، ورسالة في الماء الكر، ورسالة في الحج، ورسالة في الغيبة، ورسالة في عدم جواز تقليد الميت، ورسالة في

الرضاع، ومجموعة قيّمة من الحواشي على الكتب الفقهية[1].

تخرج على المحقق الكركي جمع من كبار العلماء منهم: الشيخ علي بن عبد العالي الميسي العاملي، والشيخ عبد النبي الجزائري صاحب كتاب (حاوي الأقوال في معرفة الرجال)، والشيخ علي المنشار العاملي، والشيخ زين الدين الفقحاني، والشيخ محمد بن أبي جامع المعروف بـ(ابن أبي الجامع)، والشيخ نعمة الله بن أحمد بن خاتون العاملي، ونور الدين علي بن عبد الصمد ـ عم الشيخ البهائي ـ والسيد محمد بن أبي طالب الاسترآبادي ـ والد السيد محمد باقر ميرداماد، والسيد جمال الدين بن عبدالله الحسيني الجرجاني، وغير هؤلاء من أعلام الفقهاء والعلماء.

كان وفود المحقق الكركي على عاصمة الصفويين بداية لهجرة واسعة من قبل فقهاء جبل عامل والمراكز الفقهية العامرة الأخرى في ذلك التاريخ مثل البحرين. وقد قدم إلى ايران بعد المحقق الكركي جمع من كبار الفقهاء منهم: الشيخ حسين بن عبد الصمد ـ والد الشيخ البهائي ـ والشيخ علي المنشار، وكمال الدين درويش محمد العاملي، والشيخ لطف الله الميسي العاملي، والشيخ الحر العاملي صاحب موسوعة (وسائل الشيعة)، وغيرهم ممن ذكرهم الحر العاملي رحمه الله في كتابه (أمل الآمل) وهؤلاء الفقهاء وضعوا أساسا متينا لمدرسة إصفهان الفقهية.

(١) مفاخر الإسلام ٤: ٤٣٩.

ومن هذه المدرسة نبغ فقهاء ومحدثون وفلاسفة كبار من أمثال: الشيخ البهائي، والعلامة المجلسي (الوالد)، والعلامة المجلسي (الابن)، والسيد محمد باقر الداماد، وصدر المتألهين، والفيض الكاشاني، والملا عبدالله الشوشتري.

معالم مدرسة اصفهان وأهم إنجازاتها الفقهية:

في هذه المدرسة دخل الفقه ساحة المجتمع والعمل السياسي، وبرز الفقه السياسي والاجتماعي بصورة ملحوظة، وأصبح من مسؤولية الفقهاء في هذا العصر الإجابة الفقهية على كثير من الأسئلة التي كان يطرحها الولاة والحكام والقضاة في مسائل الولاية والحكم والقضاء. وتناول الفقهاء هذه المسائل بالدراسة المستقلة ضمن رسائل فقهية مستقلة، وكثرت هذه الرسائل في هذا العصر، ومع أن أكثر هذه الرسائل فقدت خلال النكبة التي حلت بمدينة اصفهان في هجوم جيش محمود الأفغان، إلا أن الذي تبقى منها يعتبر ثروة فقهية مباركة لو جمعت ونظمت وأخرجت بشكل مناسب.

وفي هذا العصر أنجز المحدثون المجاميع والموسوعات الحديثية، ومن أهم هذه المجاميع: (بحار الأنوار) للعلامة المجلسي، و(وسائل الشيعة) للحر العاملي و(الوافي) للفيض الكاشاني، وهذه المجاميع حفظت لنا ما تبقى من الكتب والأصول الحديثية. ولو لا هذه المجاميع لأندثر الكثير من تراث أهل البيت في الأصول والفروع والتفسير والأخلاق والمعارف الإسلامية الأخرى.

مدرسة كربلاء

كانت في كربلاء مدرسة فقهية محدودة قبل القرن الثالث عشر بموازاة مدرسة الحلة ومدرسة جبل عامل ومدرسة اصفهان، وكان في هذه المدرسة فقهاء وعلماء كبار من أمثال: السيد فخار بن معد الحائري من أعلام الفقه والأدب والأنساب في القرن السابع الهجري، والسيد جلال عبد الحميد بن فخار بن معد الموسوي من شيوخ الرواية، والشيخ معد بن الخازن الحائري من أعلام تلاميذ الشهيد الأول ومن رجال الفقه والأدب، والشيخ علي بن عبد الجليل الحائري من تلاميذ الشيخ علي بن الحسن الحائري في القرن الثامن الهجري، والشيخ أحمد بن فهد الحلي من أقطاب الفقه والحديث ومن زعماء الحركة العلمية في مدرسة كربلاء، والشيخ إبراهيم الكفعمي من أعلام الفقه والحديث وصاحب التآليف القيمة، والسيد حسين بن مساعد الحائري في القرن التاسع الهجري، والسيد ولي الحسين الحائري صاحب كتاب (كنز الطالب) و(مجمع البحرين) و(منهاج الحق) وغيرها، والمولى القاضي محمد شريف الكاشف في القرن الحادي عشر الهجري، والسيد نصر الله الحائري الفقيه الأديب الشاعر المعروف في القرن الثالث عشر وغيرهم من أعلام الفقه والأدب والحديث والتفسير في هذه المدرسة العلمية.

إلا أن هذه المدينة شهدت في القرن الثاني عشر والثالث عشر نشاطا فقهيا واسعا وزخرت بفقهاء كبار من أمثال: الشيخ يوسف

صاحب (الحدائق)، والوحيد البهبهاني، والسيد مهدي بحر العلوم، والمولى محمد مهدي النراقي صاحب (مستند الشيعة)، والسيد مهدي الشهرستاني، والسيد علي الطباطبائي صاحب (الرياض)، والسيد محمد المجاهد الطباطبائي، والشيخ شريف العلماء، والشيخ محمد حسين الاصفهاني صاحب (الفصول)، والسيد إبراهيم القزويني صاحب (الضوابط)، والمولى محمد صالح البرغاني، وغيرهم.

ويبدو أن مدرسة كربلاء بدأت تتسع في النكبة التي أصابت اصفهان في فتنة محمود الأفغان، وأخذت تستقطب طلبة العلم والفقهاء والعلماء والمدرسين.

الشيخ يوسف مؤلف (الحدائق):

ومن أبرز الأسماء التي تلمع في تاريخ هذه المدرسة في هذه الفترة بالذات وفي بدئيات نشاطها الفكري والفقهي اسم الشيخ يوسف البحراني مؤلف الموسوعة الفقهية القيمة والجليلة (الحدائق الناضرة). حل بكربلاء بحدود عام ١١٦٩ هـ فحف به طلاب العلم وارتشفوا من نمير علمه العذب وتسلم في كربلاء زعامة التدريس والزعامة الدينية. ولبث في هذه المدينة قرابة عشرين عاما حتى وافاه الأجل فيها.

وكان الشيخ يوسف يحمل الاتجاه الإخباري في طريقة استنباط الحكم الشرعي، وكانت هذه الطريقة يومئذ هي الطريقة المعروفة في أوساط المدارس الفقهية للشيعة الإمامية، وكان الشيخ يوسف البحراني من أقطاب وزعماء هذه المدرسة.

وكانت البحرين قاعدة ومنطلقا للاتجاه الإخباري في الفقه، فلما تعرضت للغزو وتشرد أهلها انتشر فقهاؤها في الأرض، واحتضنت كربلاء بعضهم، وكان الشيخ يوسف من هؤلاء الذين لجأوا إلى هذه المدينة المقدسة ليواصلوا عملهم العلمي هناك، ونشط الشيخ يوسف في كربلاء وواصل عمله العلمي على صعيدي التأليف والتدريس بالإضافة إلى الزعامة الدينية التي انفرد بها في هذه المدينة المقدسة، وتخرج على يده خلال هذه المدة عدد من كبار الفقهاء أمثال: أبي علي الحائري مؤلف (منتهى المقال)، والمحقق الميرزا القمي مؤلف (القوانين)، والشيخ حسين بن محمد بن حسين مؤلف (عيون الحقائق الناظرة في تتمة الحدائق الناضرة)، والسيد علي الطباطبائي الحائري مؤلف (الرياض)، والسيد مهدي بحر العلوم الفقيه الشهير مؤلف (الفوائد الرجالية) والمولى أحمد النراقي مؤلف (مستند الشيعة)، والسيد ميرزا الشهرستاني، والسيد ميرزا مهدي بن هداية الله الاصفهاني الخراساني الشهيد. وأكمل خلال هذه الفترة تأليف (الحدائق الناضرة) إلى كتاب الظهار وأتمه من بعد ابن أخيه الشيخ حسين.

ومن أهم ما كتبه خلال هذه الفترة (الدرة النجفية) ويبدو أنه كتبه في مدينة النجف خلال زياراته لها، و(سلاسل الحديد في تقييد ابن أبي الحديد)، و(الشهاب الثاقب في بيان معنى الناصب)، و(الكشكول)، و(لؤلؤة البحرين)، ومجموعة أخرى من الكتب في الفقه وأصول العقائد والحديث.

وكان اتجاه الشيخ يوسف بدء الأمر هو الاتجاه الإخباري

المعروف الذي انتشر أكثر ما انتشر في البحرين، وكان الشيخ يوسف ﷺ يحمل هذا الاتجاه، فلما أن استقر به المقام في كربلاء أخذ يؤلف ويدرس بنفس الاتجاه حتى نزل بكربلاء الشيخ محمد باقر الوحيد البهبهاني وكان نزول الوحيد البهبهاني بهذه المدينة إيذانا بمرحلة جديدة في الاتجاه الفقهي في مدرسة كربلاء. فقد بدأ الوحيد عمله الفقهي بالدعوة إلى الاتجاه الأصولي والاجتهاد ومواجهة المدرسة الإخبارية، ونجح الوحيد في رسالته العلمية وأبرز الاتجاه الأصولي واستقطب خيرة تلامذة الشيخ يوسف البحراني وجمعهم حوله، وانحسرت الحركة الإخبارية وانزوت ولم تستعد نشاطها بعد ذلك التاريخ.

وكانت مدرسة كربلاء في هذا العصر (القرن الحادي عشر والثاني عشر) ساحة هذا الصراع الفقهي بين المدرستين الذي انتهى إلى بروز المدرسة الأصولية وانحسار المدرسة الإخبارية.

ولابد أن نذكر في تاريخ هذا الصراع أن الشيخ يوسف مؤلف (الحدائق) بدأ يحس بأن تعمق هذه الفجوة بين المدرستين داخل المدرسة الفقهية الإمامية وتوسيع رقعة الخلاف لا يعود على التشيع بغير الخلاف والإضعاف، والمسألة من حيث الأساس لا تستحق كل هذا الاهتمام، ولا يجوز شق فقه أهل البيت إلى مدرستين متصارعتين حول هذه المسألة، وان الأمين الاسترآبادي قد غالى كثيرا وأفرط في تعميق الخلاف والتهجم على فقهاء الشيعة الذين لم يكونوا على رأيه ومذهبه من أمثال العلامة الحلي ﷺ، وليس كل ما قاله الإخباريون

حق، وليس كل ما قاله الأصوليون في محاور الخلاف باطل.

وأحس الشيخ يوسف من هذا المنطلق بمسؤولية شرعية من تضييق رقعة الخلاف وإزالة الحواجز التي أقيمت داخل هذه المدرسة بين هاتين الفئتين، فبدأ يعمل بموجب هذا الوعي وهذه المسؤولية التي أحس بثقلها على كاهله لتضييق شقة الخلاف وإزالة الحواجز ونقد التطرف الإخباري في الموقف تجاه المدرسة الأصولية والمجتهدين. وبدأ؆ يميل إلى مدرسة الأصوليين بشكل أو بآخر. فاستمع إليه؆ في المقدمة الثانية عشر من مقدمات (الحدائق) يقول:

وقد كنت في أول الأمر أنتصر لمذهب الإخباريين وقد أكثرت البحث فيه مع بعض المجتهدين من مشايخنا المعاصرين، إلا أن الذي ظهر لي بعد إعطاء التأمل حقه في المقام وإمعان النظر في كلام علمائنا الأعلام هو إغماض النظر عن هذا الباب وإرخاء الستر دونه والحجاب، وان كان قد فتحه أقوام وأوسعوا فيه دائرة النقض والإبرام.

أما (**أولاً**) فلاستلزامه القدح في علماء الطرفين...

وأما (**ثانياً**) فلان ما ذكروه في وجوه الفرق بينهما جله بل كله عند التأمل لا يثمر فرقا...

وأما (**ثالثاً**) فلان العصر الأول كان مملوء من المحدثين والمجتهدين، مع أنه لم يرتفع بينهم صيت هذا الخلاف، ولم يطعن أحد منهم على الآخر بالاتصاف بهذه الأوصاف...

ولم يرتفع صيت هذا الخلاف ولا وقوع هذا الاعتساف إلا من زمن صاحب (الفوائد المدنية) سامحه الله تعالى برحمته المرضية، فإنه

قد جرد لسان التشنيع على الأصحاب، وأسهب في ذلك أي إسهاب وأكثر من التعصبات التي لا تليق بمثله من العلماء الاطياب[١].

والحقيقة إن هذا الموقف الذي وقفه الشيخ يوسف من هذا الصراع كان له تأثير بالغ الأهمية في إعادة الانسجام إلى مدرسة أهل البيت، وإزالة التطرف الذي أصاب هذه المدرسة في فترة الصراع وعودة الاعتدال والعقلانية إلى هذه المدرسة.

وفي نفس الوقت فإن هذا الموقف يدل على غاية في الورع والتقوى والإحساس بالمسؤولية عند هذا الفقيه الجليل، ولاشك أنه واجه كثيرا من الضغوط في موقفه هذا، ولكنه آثر أن يتحمل هذه الضغوط على أن يجري مع فضلاء عصره فيما كانوا يجرون فيه من تعميق وتوسيع شقة الخلاف بين المدرستين.

والى جانب الاعتدال الذي أخذ به الشيخ يوسف؆ كان الوحيد البهبهاني؆ هو الآخر يرى أن رسالته في تكريس الخط الأصولي والاجتهاد والدفاع عنه وإزالة الشبهات التي جاء بها الإخباريون في التشكيك في الاجتهاد. وبسبب هذا الاعتدال الذي أخذ به الشيخ يوسف، والموقف الحاسم الذي أخذ به الوحيد البهبهاني رحمهما الله استعادت مدرسة أهل البيت الفقهية مدة أخرى انسجامها، ونشط الاجتهاد عل الطريقة الأصولية بعد ضمور واختفاء.

ومما يروى من سيرة هذا الفقيه الجليل الشيخ يوسف أنه رغم

(١) الحدائق الناضرة١: ١٦٧ ـ ١٧٠ وقد اخترنا مقتطفات من كلامه؆ بقدر الحاجة.

الصراع الطويل الذي خاضه مع الوحيد البهبهاني في أمر الأصول والاجتهاد أوصى أن يصلي عليه بعد وفاته الوحيد البهبهاني دون غيره من معاصريه، وهذه درجة عالية من التجرد عن الأنانية لا يناله إلا ذو حظ عظيم من الإخلاص لله تعالى.

الوحيد البهبهاني:

حمل الوحيد البهبهاني لواء الدعوة إلى الخط الأصولي، وواجه الإخباريين في النجف وبهبهان وكربلاء، وفي تأليفاته ودروسه ومحاوراته التي كان يجريها مع علماء المدرسة الإخبارية.

حل في بهبهان ثلاثين سنة، وكانت هذه المدينة تضم جمعا من فقهاء البحرين الإخباريين فتحولت المدرسة العلمية في عهده في هذه المدينة إلى الاتجاه الأصولي.

وانتقل إلى كربلاء وبقي إلى آخر عمره في كربلاء وتوفي فيها. ولما حل الشيخ الوحيد في كربلاء كان الاتجاه الإخباري ـ كما ذكرنا ـ هو الاتجاه السائد، وكان الشيخ يوسف البحراني زعيم هذا الاتجاه العلمي، فبدأ الوحيد يعمل ضد هذا الاتجاه في دروسه وتأليفه ومحاوراته، فلم يمض مدة حتى استقطب فضلاء طلاب الشيخ يوسف البحراني، كالسيد مهدي بحر العلوم والسيد مهدي الشهرستاني، وتحول جمع من تلاميذ الشيخ يوسف من درسه إلى درس الوحيد البهبهاني. وكان همه الأول خلال هذه الفترة هو تكريس الاتجاه الأصولي ونقض ونقد الاتجاه الإخباري وإعادة الانسجام والاعتدال إلى مدرسة أهل البيت في الفقه.

وكان الشيخ الوحيد محاورا قويا وقادرا على إدارة الحوار بصورة ممتازة وجيدة. وكان يستخدم الحوار في نقد المدرسة الإخبارية وتكريس الاتجاه الأصولي بشكل واسع.

حدّث الشيخ عباس القمي في (الفوائد الرضوية) عن صاحب (التكملة) عن الحاج كريم فراش الحرم الحسيني الشريف أنه كان يقوم بخدمة الحرم في شبابه، وذات ليلة التقى بالشيخ يوسف البحراني والوحيد البهبهاني داخل الحرم الحسيني الشريف وهما واقفان يتحاوران، وطال حوارهما حتى حان وقت إغلاق أبواب الحرم فانتقلا إلى الرواق المحيط بالحرم واستمرا في حوارهما وهما واقفان، فلما أراد السدنة إغلاق أبواب الرواق انتقلا إلى الصحن وهما يتحاوران، فلما حان وقت إغلاق أبواب الصحن انتقلا خارج الصحن من الباب الذي ينفتح على القبلة، واستمرا في حوارهما وهما واقفان فتركهما وذهب إلى بيته ونام، فلما حل الفجر ورجع إلى الحرم صباح اليوم الثاني سمع صوت حوار الشيخين من بعيد، فلما اقترب منها وجدهما على نفس الهيئة التي تركهما عليها في الليلة الماضية مستمران في الحوار والنقاش، فلما أذن المؤذن لصلاة الصبح رجع الشيخ يوسف إلى الحرم ليقيم الصلاة جماعة ورجع الوحيد البهبهاني إلى الصحن وافترش عباءته على طرف مدخل باب القبلة، وأذن وأقام وصلى صلاة الصبح.

وفي أمثال هذه المحاورات كان الوحيد يتمكن من خصومه الفكريين ويدحض شبهاتهم ويكرس الاتجاه الأصولي ويعمقه.

ولابد أن نقول مرة أخرى اعترافا بالفضل للشيخ يوسف مؤلف

(الحدائق): إن تقوى الشيخ وخلوصه وصدقه وابتغاءه للحق كان من أهم عوامل هذا الانقلاب الفكري الذي جرى على يد الوحيد في كربلاء، ولو كان الشيخ يوسف من موقعه العلمي والاجتماعي يريد أن يجادل الوحيد ويظهر عليه لطالت محنة هذه المدرسة الفقهية واتسعت مساحة الخلاف فيها وتعمق فيها الخلاف، ولكن الشيخ يوسف كان يؤثر رضا الله والحق على أي شيء آخر، ومكن الوحيد البهبهاني في حركته الإصلاحية العلمية.

ومن غرائب ما يروى عن هذا العبد الصالح أن الوحيد كان يحظر على تلاميذه حضور دروس الشيخ يوسف، ولكن الشيخ في المقابل كان يسمح لتلاميذه بحضور دروس الوحيد، وكان يقول كل يعمل بموجب تكليفه، ويعذر الوحيد في ذلك، وهو نموذج رائع من نماذج سعة الصدر والتقوى في فقهائنا الأعلام.

واستطاع الوحيد خلال فترة إقامته في كربلاء أن يربي عددا كبيرا من الفقهاء والمجتهدين. ولو تحرينا نحن فروع شجرة فقهاء أهل البيت في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر وجدنا أنهم جميعا يرجعون بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى الوحيد البهبهاني، ولذلك يطلق على الوحيد البهبهاني (أستاذ الكل) أو (الأستاذ الأكبر) وهو لقب يختص به الوحيد البهبهاني. فتخرج من دروسه العلامة السيد مهدي بحر العلوم الفقيه الشهير مؤلف (الفوائد الرجالية) والذي سبق أن ذكرنا أنه من تلامذة الشيخ يوسف البحراني، والسيد محمد مهدي الشهرستاني، والسيد علي الطباطبائي مؤلف (رياض المسائل)، والشيخ جعفر الكبير

مؤلف (كشف الغطاء)، والمحقق القمي صاحب كتاب (قوانين الأصول)، والسيد محسن الاعرجي مؤلف كتاب (المحصول) في الأصول، والمحقق ملا أحمد النراقي مؤلف (المستند)، والسيد ميرزا مهدي الخراساني الشهيد، والشيخ أسد الله الكاظمي مؤلف (مقابيس الأنوار)، والسيد جواد العاملي مؤلف الموسوعة الفقهية الشهيرة بـ(مفتاح الكرامة)، والشيخ محمد تقي الاصفهاني مؤلف حاشية المعالم المعروف بـ(هداية المسترشدين في شرح أصول معالم الدين)، والسيد محمد باقر حجة الإسلام الشفتي الاصفهاني مؤلف كتاب (مطالع الأنوار في شرح شرائع الإسلام)، والمحقق الكلباسي مؤلف كتاب (إشارات الأصول)، والسيد محمد حسن زنوزي مؤلف كتاب (رياض الجنة) و(دوائر العلوم)، والسيد دلدار علي الهندي من أعلام الفقهاء في الهند صاحب (مسكن الفؤاد) و(دعائم الإسلام) و(الشهاب الثاقب)، والشيخ أبو علي الحائري مؤلف (منتهى المقال).

وخلف الوحيد البهبهاني. من بعده كتبا قيمة من آثاره وأفكاره، يقول تلميذه الشيخ أبو علي في (منتهى المقال): أن تأليف الأستاذ يقرب من ستين كتابا، وقد خصص الوحيد البهبهاني جملة من كتبه في رد الشبهات عن المدرسة الأصولية ودحض شبهات الإخباريين ونظرياتهم من قبيل رسالة (الاجتهاد والأخبار) ورسالة (حجية الإجماع) ورسالة (الفوائد الحائرية) ورسالة (الفوائد الجديدة) وغير ذلك من التآليف. وكتب الوحيد متينة ومشحونة بالأفكار الفقهية والأصولية، وتعتبر جملة من أفكاره التي دونها والتي درسها لتلاميذه أسسا لعلم الأصول الحديث.

الحركة الإخبارية

نبذة عن التاريخ السياسي للحركة:

يعتقـد أحـد الكتـاب المعاصـرين [1] أن الجـذور الـسياسية لنـشأة الحركة الإخبارية في مدرسة فقه أهل البيت يعود إلى الصراع الـشديد الذي كان يجري في العـصر الـصفوي بـصورة مكتومـة بـين المؤسـسة السياسية والمؤسسة الفقهية، فقد أخـذ الـصفويون يتـضايقون مـن سـعة دائرة نفوذ المؤسـسة الفقهيـة والتحـول التـدريجي الـذي جـرى داخـل المؤسسة الفقهية من سلطة روحية إلى سلطة زمنية تتـدخل فـي شـؤون الناس وتزاحم السلطة الرسمية في شؤونها واهتماماتها.

ورغــم حاجـة المؤسـسة الـسياسية الـصفوية إلــى دعــم وإسـناد المؤسسة الفقهية وإلى وقوفها إلى جانبها في صراعها مع العثمـانيين إلا أنهم كانوا يتضايقون مـن توسـع دائـرة نفـوذ الفقهـاء وفـي هـذه الفتـرة بالذات ظهرت الحركة الإخبارية ابتداء من سنة ٩٨٥ هـ ثم اتسعت هذه الحركة وتمكنت من شق المدرسـة الفقهيـة عنـد الـشيعة الإماميـة إلـى شطرين متصارعين، وإضعاف مؤسسة الاجتهاد إلى حد بعيد.

فالحركة الإخبارية كانت هي البديلة لمؤسـسة الاجتهـاد، وبطبيعـة الحال فـإن تكـريس الحركـة الإخباريـة يكـون علـى حـساب مؤسـسة الاجتهاد، والجهة المستفيدة من ذلـك هـو الجهـة الرسـمية فـي الدولـة

[1] وهو السيد جودت القزويني في دراسته القيمة عن التاريخ السياسي للفقه الإمامي.

الصفوية التي بدأت تتضايق مـن سـعة دائـرة نفـوذ الفقهـاء فـي الدولـة الصفوية، ومع احترامنا لرجال هـذه الحركـة وفقهائهـا وهـم نخبـة مـن خيـرة فقهائنـا ورجالنـا لا نـستبعد هـذا التحليـل، فإننـا عنـدما نـستعرض تـاريخ الـصفويين نلمـس هـذا التنـاقض الغريـب فـي تكـوين النظـام الصفوي.

فقد قام النظام الصفوي باسم الدعوة إلى التشيع، وأستفاد مـن هـذه الدعوة واكتسب قوته من ذلك. وانتشر التـشيع فـي ايـران بهـذا النظـام، واستقدم النظام فقهاء الشيعة من جبل عامل لنشر التشيع وتفقيـه أجهـزة الدولة وحركة المجتمع العامة، ولكن هذا النظام فـي نفـس الوقـت لـم يكن يحب لم أن يسمح بظهور قوة جديدة في الـساحة تزاحمـه. ولمـا تحولت المؤسسة الفقهيـة إلـى قـوة وسـلطة زمنيـة تـتحكم فـي شـؤون الدولة والمجتمع بدا النظام الصفوي يتضايق من هذه الظاهرة.

ومن هذا المنطلق لا نـستبعد أن يكـون الحكـم الـصفوي فكـر فـي دعم وتكريس الحركة الإخبارية والاسـتفادة منهـا دون أن يعنـي ذلـك مصادرة البواعـث والمنطلقـات الفقهيـة لهـذه الحركـة والتـي لا يمكـن التشكيك فيها أو ربطها بالعجلة السياسية.

إلا أن هذه الحركة رغـم هـذا التحليـل لـم تمتـد فـي ايـران كثيـرا، وإنما تكرست وتموضعت في البحرين، ثم انطلقت منها إلـى كـربلاء، وازدهـرت هـذه الحركـة وانتعـشت فـي كـربلاء، ثـم أخـذت تنحـسر بالتدريج بفعل المواجهة التي قـام بهـا وصـعدها الوحيـد البهبهـاني فـي كربلاء.

الأصول الفكرية للحركة الإخبارية:

كما ذكرنا من قبل يدعي الإخباريون أن خطهم الفكري في استنباط الحكم الشرعي يعود إلى عصر الفقهاء الأوائل، ويقولون بأن رأيهم في طريقة فهم الحكم الشرعي مثل ما رآه الشيخ الصدوق وكبار المحدثين. ولكننا نشك في صحة هذا الرأي. فإن هؤلاء الأعلام محدثون، والمحدثون غير الإخباريين. وفي رأينا أن هذه المدرسة تحددت معالمها بصورة علمية على يد الشيخ أمين الاسترآبادي (المتوفى ١٠٣٣هـ) وبشكل خاص في كتابه (الفوائد المدنية) الذي وضع أصول ما فيه من الأفكار في المدينة المنورة، ثم دونها في مكة المكرمة وسماه بـ(الفوائد المدنية) في الرد على من قال بالاجتهاد والتقليد أي أتباع الظن في نفس الأحكام. وهذا الكتاب يحوي أصول الفكر الإخباري بصورة منظمة وعلمية.

ويُعد الأمين الاسترآبادي أبرز علماء هذه المدرسة ورائدها. وهناك علماء آخرون بنفس الاتجاه كالشيخ حسين بن شهاب الدين الكركي العاملي (١٠٧٦هـ)، والحر العاملي مؤلف الموسوعة الحديثية الجليلة (وسائل الشيعة) والفيض الكاشاني مؤلف (الوافي)، والشيخ يوسف البحراني مؤلف (الحدائق الناضرة)، وغيرهم والشيخ ميرزا محمد الإخباري (١٢٣٣هـ) وكان هذا الأخير شديدا في آرائه قاسيا في نقده للأصوليين.

محاور الخلاف بين المدرستين:

يقول مؤلف الروضات: إن الشيخ عبدالله بن الحاج صالح البحراني ذكر في كتاب (منية الممارسين في جوابات مولانا الشيخ ياسين) في الفرق بين العالم الإخباري والمجتهدين أربعين وجها[1].

وذكر الميرزا محمد الإخباري في كتاب (الطهر الفاصل) تسع وخمسين فرقا بين الأصوليين والإخباريين، لكن في هذا التفريق مبالغة واضحة، يقصد بها توسعة رقعة الخلاف بين المدرستين.

والمسائل الأساسية التي تختلف فيها المدرستان هي:

(**أولا**) قطعية صدور كل ما ورد في الكتب الحديثية الأربعة من الروايات لاهتمام أصحابها بتدوين الروايات التي يمكن العمل والاحتجاج بها، وعليه فلا يحتاج الفقيه إلى البحث عن اسناد الروايات الواردة في الكتب الأربعة، ويصح له التمسك بما ورد فيها من الأحاديث، وهذا هو رأي المدرسة الإخبارية.

أما الأصوليون فلهم رأي آخر في ما ورد في الكتب الأربعة ويقسمون الحديث إلى الأقسام الأربعة المشهورة: الصحيح والحسن والموثق والضعيف، ويأخذون بالأولين أو بالثلاثة الأول دون الأخير.

(**وثانيا**) عدم جريان البراءة في الشبهات الحكمية التحريمية، وهو رأي للإخباريين، أما الأصوليون فيذهبون إلى صحة جريان البراءة في الشبهات الحكمية الوجوبية والتحريمية بالعقل والأدلة النقلية.

(١) روضات الجنات ٤: ٢٥٠.

(**وثالثا**) نفي حجية الإجماع وهو رأي معروف للإخباريين، أما الأصوليون فيتمسكون بالإجماع إذا كان ضمن الإجماع (المحصل).

(**ورابعا**) نفي حجية حكم العقل ونفي الملازمة بين الحكم العقلي والحكم الشرعي، وتضطرب كلمات الإخباريين بشكل يصعب على الباحث أن يستخرج من كلماتهم شيئا محدد المعالم لينسبه إليهم، فمن منكر للملازمة بين الحكم العقلي والشرعي، وآخر منكر للحكم العقلي الظني.

وقد أنكر المحقق الخراساني أن يكون مقصود الإخباريين إنكار حجية القطع فيما إذا كان بمقدمات عقلية. وإنما تتجه كلماتهم إلى منع الملازمة بين حكم العقل بوجوب شيء وحكم الشرع بوجوبه. كما ينادي بأعلى صوته ما حكي عن السيد الصدر في باب الملازمة وأما في مقام عدم جواز الاعتماد على المقدمات العقلية لأنها لا تفيد إلا الظن، كما هو صريح الشيخ المحدث الاسترآبادي رحمه الله[1].

ولكن مراجعة كلمات المحدث الاسترآبادي نفسه يعيد إلى نفوسنا الثقة بأنه ممن لا يرتضي الاعتماد على غير الحديث حيث يقول، كما ينقله المحقق الخراساني أيضا: وإذا عرفت ما مهدناه من الدقيقة الشريفة فنقول: إن تمسكنا بكلامهم عليهم السلام فقد عصمنا من الخطأ وإن تمسكنا بغيره لم نعصم عنه، ومن المعلوم أن العصمة من الخطأ أمر مطلوب مرغوب فيه[2].

---

(١) كفاية الأصول ٢: ٣٢ و٣٣.

(٢) الفوائد المدنية للاسترابادي.

وهذا الكلام يتنافى وما يريد المحقق الخراساني رحمه الله أن يستخلصه من كلمات الإخباريين.

ومهما يكن من أمر فلاشك أن كلمات بعض الإخباريين يمكن أن يحمل على الخلاف الصغروي من منع حصول القطع بالحكم الشرعي عن غير الكتاب والسنة... ولكن الظاهر مما ينسب إلى كثير منهم كالمحدث الاسترآبادي والسيد نعمة الله الجزائري والمحدث البحراني[1] هو القول بعدم حجية القطع الحاصل عن غير الكتاب والسنة بعد حصوله[2].

ولكن الذي يستطيع الباحث أن يستخلصه من كلمات الإخباريين ويطمئن إلى نسبته إليه دون أن يضر بذلك اختلاف كلماتهم هو القول بلزوم توسط الأوصياء سلام الله عليهم في التبليغ، فكل حكم لم يكن فيه وساطتهم فهو لا يكون واصلا إلى مرتبة الفعلية والباعثية، وان كل ذلك الحكم واصلا إلى المكلف بطريق آخر[3] فلا يمكن الاعتماد بناء على هذه الدعوى على العقل في الحكم والاجتهاد.

(**وخامسا**) نفي الاحتجاج بالكتاب العزيز وقد وقف الإخباريون عن العمل بالقرآن لطرو مخصصات من السنة ومقيدات على عمومه ومطلقاته، ولما ورد من أحاديث ناهية عن تفسير القرآن بالرأي[4].

---

(١) حاشية المشكيني على الكفاية ٢: ٣٢ طبع ايران.

(٢) راجع دراسات الأستاذ المحقق الخوئي ٣: ٤٦ طبع النجف.

(٣) أجود التقريرات للعلامة المحقق الخوئي ٢: ٤٠ طبع صيدا.

(٤) راجع الأصول العامة للفقه المقارن: ص ١٠٣ و١٠٤ طبع بيروت.

ومهما يكن من أمر فلم يقدر لهذا الاتجاه الجديد في الاستنباط والاجتهاد أن يبقى في ساحة الصراع الفكري واختفى تقريبا من مراكز الدراسات الفقهية المعاصرة المعروفة، ولم يعد يزاحم الاتجاه القائم في الاجتهاد لدى الشيعة في المراكز العلمية الشيعية القائمة.

هذا كله رغم ما نكن للعلماء الإخباريين من ناحية علمية وإسلامية من احترام وتقدير عميقين، لما بذلوه من جهود ولما كانوا يتصفون به من إخلاص وتقوى، ويكفي أن يكون منهم الشيخ صاحب الحدائق والحر العاملي مؤلف (الوسائل) وغيرهم من رجال الفقه والحديث في مدرسة أهل البيت.

وبعد، فهذه دراسة سريعة لتأريخ فقه أهل البيت عليهم السلام منذ ظهور هذه المدرسة في المدينة المنورة حتى مدرسة كربلاء، ويبقى علينا أن نتحدث عن مدرسة البحرين ـ المعاصرة لمدرسة اصفهان ـ ومدرسة النجف ومدرسة قم الحديثة، لتكتمل حلقات هذه الدراسة في تاريخ فقه أهل البيت عليهم السلام.

أسأل الله تعالى أن يوفقني لإكمال هذه الدراسة التاريخية في المستقبل القريب إن شاء الله إنه ولي التوفيق.

الفهرس